

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية

التخصص: أدب جزائري

التخييل والتأريخ في أدب الرحلة
رحلة المقرئ التلمساني أنموذجا

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

إشراف الدكتورة :

د. بن يطو حورية

إعداد الطالب :

واضح فاروق

لجنة المناقشة:

رئيسا

جامعة غليزان

1-أ.د. صباح مجاهدي

مشرفا ومقررا

جامعة غليزان

2-أ.د. بن يطو حورية

عضوا مناقشا

جامعة غليزان

3-أ.د. عثمان عمار

السنة الجامعية:

1447/1446هـ

2025 - 2026م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُكْرُ الْفَقْرِ

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، الذي وفقني وأعاني على إتمام هذا العمل المتواضع، فله الحمد والشكر أولاً وآخراً.

أتقدّم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة بن يطو حورية، التي لم تبخل عليّ بتوجيهاتها القيّمة ونصائحها السديدة، وكانت سنداً علمياً ومعنوياً في إنجاز هذه المذكرة، فجزاها الله عني خير الجزاء.

كما أتقدّم بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة الموقّرة، لقبولهم مناقشة هذا العمل، وإثرائه بملاحظاتهم وتصويباتهم العلمية.

ولا يفوتني أن أتوجّه بالشكر إلى كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها خاصة د.عمار عثمان ، وكل من ساعدني من قريب أو بعيد، ولو بكلمة طيبة أو نصيحة صادقة.

فإلى الجميع أسمى عبارات الشكر والتقدير والعرفان.



إلى من كانا سبب وجودي في هذه الحياة،
إلى من غرسا في نفسي حب العلم والصبر والاجتهاد،
إلى والديّ الكريمين، حفظهما الله وأطال في عمرهما،
أهدي ثمرة جهدي المتواضع.

إلى إخوتي وأخواتي، سندي وعوني في الحياة،
إلى كل أفراد عائلتي الكريمة،
إلى أصدقائي وزملائي الذين شاركوني مراحل الدراسة،
إلى كل من شجعني ودعمني ولو بكلمة طيبة.

وإلى كل طالب علم يسعى إلى المعرفة،
أهدي هذا العمل المتواضع، راجياً من الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنطق اللسان بالبيان، ويسر العقول لفهم المعاني والأركان، أحمده سبحانه وأشكره على جزيل النعم والامتنان، وأصلي وأسلم على البشير النذير، والسراج المنير، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

تعد الرحلة من أهم الظواهر الإنسانية التي عرفها الإنسان منذ القديم، إذ ارتبطت بالحركة والانتقال من مكان إلى آخر، فالإنسان بطبعه ميال إلى الارتحال باحثا عن المعرفة، ساعيا إلى اكتشاف المجهول والاطلاع على أحوال الناس والبلدان، ومن ثمّ، لم تكن الرحلة مجرد انتقال ماديّ فحسب، بل كانت تجربة إنسانية ومعرفية ثرية، تجمع بين المشاهدة والتأمل وبين الواقع والخيال، وتفتح أمام الإنسان آفاقا جديدة للفهم والإدراك.

لذلك احتل أدب الرحلة مكانة مهمة في الأدب العربي، لأنه من الفنون النثرية التي تجمع بين عدة حقول معرفية، فهو يتصل بالتاريخ والجغرافيا وبالأدب والاجتماع، كما يعتمد على السرد والوصف ونقل الأخبار والمشاهدات إلى المتلقي، فالرحالة لا يكتفي بذكر الطرق المؤدية من و إلى، وإنما يصف المدن التي زارها وعابنها، وكذا الأحداث التي عاشها، لذلك يعد أدب الرحلة وثيقة أدبية وتاريخية في الوقت نفسه، إذ يتيح لنا التعرف على أحوال الشعوب والبلدان في فترات زمنية مختلفة، ويقدم صورة حيّة عن أنماط العيش والعادات والتقاليد، كما يعكس رؤية الرحّالة وانطباعاتهم اتجاه ما يشاهدونه، مما يمنح هذا الفن الأدبي قيمة معرفية مهمة في دراسة التاريخ والحضارات.

ولقد عرف العرب هذا الفن منذ العصر الجاهلي وأولوه اهتماما كبيرا، ويتجلى ذلك من خلال رحلتي الشتاء والصيف، ثم تطورت بعد ظهور الإسلام بسبب الحج وطلب العلم والاتصال بالمراكز العلمية الكبرى، فظهرت رحلات كثيرة سجلت لنا أخبار البلدان، ووصفت أحوال الناس، وحفظت كثيرا من المعارف التي لا نجدّها في غيرها من المصادر، كما كان للجزائر نصيبها من هذا

الفن، فقد ظهر فيها عدد من الرحالة الذين ساهموا في إثراء أدب الرحلة، ومن بينهم عبد الرحمن الثعالبي، والحسين الورثلائي، وعبد الرزاق بن حمادوش، وأبو راس الناصر، والأمير عبد القادر، وغيرهم. ومن الرحالة الجزائريين الذين كان لهم حضور بارز في هذا المجال نذكر: العالم والأديب والمؤرخ أحمد المقري التلمساني، الذي يعد من الشخصيات العلمية الكبرى التي جمعت بين الأدب والتاريخ والفقه والحديث، كما أنه قام برحلات متعددة إلى المغرب والمشرق، حيث زار فاس ومراكش، ثم مصر والحجاز ودمشق وبيت المقدس، ودوّن في رحلته مشاهدات كثيرة، جمع فيها بين توثيق الأحداث ووصف الأمكنة والتعبير عن مشاعره وأحاسيسه، ولهذا فإن رحلته لا تعد مجرد أخبار تاريخية، بل هي نص أدبي فيه جانب من التأريخ وجانب من التخيل.

ومن هنا جاء موضوع بحثنا الموسوم بـ: **التخيل والتأريخ في أدب الرحلة في رحلة المقري التلمساني أنموذجا**، حيث أردنا من خلاله الوقوف على الطريقة التي جمع بها المقري بين تسجيل الوقائع التاريخية وبين استعمال الصور الفنية والخيالية في وصف ما شاهده وما أحس به أثناء رحلته، فالتأريخ يظهر عنده في ذكر الأزمنة والأمكنة والشخصيات والمجالس العلمية، أما التخيل فيظهر في التشبيهات والاستعارات والصور الشعرية التي جعلت نصه أكثر حياة وتأثيرا.

ومن بين الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع هو الميل إلى دراسة أدب الرحلة باعتباره فنا أدبيا يجمع بين المتعة والفائدة، وكذلك الرغبة في التعرف على شخصية المقري التلمساني بوصفه واحدا من أعلام الجزائر الذين كان لهم دور كبير في ربط المغرب بالمشرق، إضافة إلى محاولة الكشف عن القيمة الأدبية والتاريخية لرحلته، خاصة أن هذا النوع من النصوص يحتاج إلى دراسة تكشف جوانبه الفنية والمعرفية.

ولهذا، يمكننا طرح الإشكالية الآتية: **كيف تجلّى التأريخ والتخيل في رحلة المقري التلمساني إلى المغرب والمشرق؟**

وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة، منها: ما مفهوم الرحلة؟ وما مفهوم التخيل والتأريخ؟ وما هي خصائص أدب الرحلة؟ وكيف نشأ أدب الرحلة في الجزائر؟ وما أهم المحطات التي مر بها المقري في رحلته؟ وكيف استطاع أن يمزج بين الواقعة التاريخية والصورة التخيلية في نصه الرحلي؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية قسمنا بحثنا إلى مدخل وفصلين؛ جاء المدخل بعنوان: مفاهيم ومصطلحات، وتناولنا فيه مفهوم الرحلة لغة واصطلاحاً، ثم مفهوم التخيل لغة واصطلاحاً، وبعدها مفهوم التأريخ لغة واصطلاحاً، وذلك حتى نضبط المصطلحات التي يقوم عليها البحث.

أما **الفصل الأول** فجاء بعنوان: أدب الرحلة في الجزائر، وقد تطرقنا فيه إلى ماهية أدب الرحلة وخصائصه، ثم تحدثنا عن نشأة أدب الرحلة عند العرب، وبعدها عن نشأته وتطوره في الجزائر، كما ذكرنا أشهر الرحالة الجزائريين ورحلاتهم، وذلك من أجل وضع رحلة المقري ضمن سياقها العام في التراث الرحلي الجزائري والعربي.

بينما **الفصل الثاني** فكان تطبيقياً، ووسميناه ب: رحلة المقري التلمساني أنموذجاً، حيث قدمنا فيه عرضاً موجزاً لرحلة المقري إلى المغرب والمشرق، ثم درسنا تجليات التأريخ والتخيل في هذه الرحلة من خلال مجموعة من المحطات، مثل مغادرته لتلمسان، وركوبه البحر، ووصوله إلى مصر، وزيارته لمكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، إضافة إلى بعض الزيارات والمجالس العلمية التي وثقها في رحلته.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على **المنهج الوصفي التحليلي**، لأنه الأنسب لمثل هذه المواضيع، حيث قمنا بوصف المادة الرحلية أولاً، ثم تحليل مظاهر التأريخ والتخيل فيها، كما استعنا بالمنهج التاريخي عند الحديث عن نشأة أدب الرحلة وتطوره، وعن حياة المقري ومحطات رحلته.

أما مصادر الدراسة ومراجعها، فقد اعتمدنا أساساً على كتاب **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني**، وكتاب **رحلة المقري إلى المغرب والمشرق**، وكتاب مفهوم التخيل في النقد والبلاغة العربيين ليوسف الإدريسي وكتاب أدب الرحلة في التراث العربي لفؤاد قنديل

إضافة إلى مجموعة من المعاجم مثل لسان العرب ومحيط المحيط ، وبعض المراجع التي تناولت أدب الرحلة والتخييل والتأريخ .

ومن بين الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث تشعب الموضوع واتساعه، لأن رحلة المقرئ تتداخل فيها عناصر كثيرة؛ منها التاريخ، والأدب، والفقه، والحديث، والمشاهدات الشخصية والرسائل كما أن الحديث عن التخييل والتأريخ يحتاج إلى دقة في التمييز بين ما هو واقعي وما هو فني داخل النص، إضافة إلى صعوبة جمع بعض المعلومات المتعلقة برحلة المقرئ .

وفي الختام، نحمد الله تعالى الذي وفقنا إلى إنجاز هذا العمل، ونسأله أن يكون عملاً نافعا كما نتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذة المشرفة المحترمة د. بن يطو حورية، التي كانت لنا عوناً وسنداً بتوجيهاتها ونصائحها، فجزاها الله عنا كل خير ، كما نتوجه بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم قراءة هذا العمل وتصويب أخطائه، فإن أصبنا فمن الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا، والحمد لله رب العالمين.

مدخل

مفاهيم ومصطلحات :

مفهوم الرحلة لغة و إصطلاحا

مفهوم التخيل لغة و إصطلاحا

مفهوم التأريخ لغة و إصطلاحا

• مفهوم الرحلة :

➤ الرحلة لغة :

إن التقصي في الجذور اللغوية لمصطلح "الرحلة" يكشف عن بنية دلالية قوامها الحركة والتحول، إذ تشير مادة (رحل) في أصلها العربي إلى معاني الترحيل والارتحال، وهي مادة تعبر عن إشخاص و إزعاج النفس من مكان إلى آخر، فلا يُطلق على المرء أنه "رحل" إلا إذا فارق مستقره وضرب في مناكب الأرض سائراً، مما يجعل "الرحلة" في جوهرها اسماً جامعاً لكل فعل حركي يستهدف الانتقال المكاني ⁽¹⁾.

وقد استقر في "لسان العرب" لابن منظور أن الانتقال المكاني يكون بواسطة "الراحلة" وهي الصفوة المختارة من الإبل التي تمتاز بالجلد والقدرة على تحمل مشاق الأسفار ونقل الأحمال الثقيلة، مما يدمج بين الفعل ووسيلته ⁽²⁾.

ويعتمد هذا التأصيل ليشمل الفوارق الدقيقة في ضبط الكلمة، وهذا ما أكده بطرس البستاني في كتابه "محيط المحيط" بقوله: « رحل عن البلد يرحل رحلاً ورحيلاً » ؛ وقد يفرق اللغويون بين "الرحلة" (بكسر الراء)، وهي التي تدل على ممارسة الانتقال والارتحال، كقولهم: « دنت رحلتنا » أي

¹ (ابن منظور)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مج3، ص 1608.

² المرجع نفسه، ص 1609 .

اقترب موعد سفرنا ومسيرنا، وبين "الرحلة" (بضم الراء)، والتي تشير إلى الوجهة النهائية أو المقصد الذي يبتغي المسافر الوصول إليه، كقولهم: «مكة رُحلتنا» أي مقصدنا ووجهتنا.⁽¹⁾

وأحسن من يمثل المرجعية الصحيحة لمفهوم الرحلة هو القرآن الكريم ؛ ورغم أن لفظ "الرحلة" لم يرد بلفظه الصريح إلا مرة واحدة في سورة قريش في قوله تعالى: ﴿لَا يَلَا ف قَرِي شَ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾،⁽²⁾ والمراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمين في أسفارهم .

تأتي كلمة «الرَّحْل» بمعنيين؛ فهي تُطلق على مسكن الرجل وما يحمله معه من أثاث، كما تُطلق أيضاً على «رَحْل البعير»، وهو السرج الصغير الذي يوضع على ظهر الناقة أثناء السفر، ويختلف عن «القتب» الذي يكون أكبر حجماً ويُستعمل لحمل الأثقال، بينما يبقى الرَّحْل أخف وأصغر، وهذا يعني أن العربي كان يرى في رحلته كأنها بيت متنقل، فكان يشعر بالراحة حتى وهو يتنقل من مكان إلى آخر.⁽³⁾

ورغم تعدد مشتقات مادة "رحل"، إلا أنها تشترك في معنى عام واحد هو الحركة، التي ارتبطت بالإنسان قبل وجوده على وجه الأرض وبعده، وهي دليل حياته، مثلما يكون السكون دليل موته.⁴

¹ (بطرس البستاني)، محيط المحيط: قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، طبع 1987، ص 328.

² (إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي)، تفسير القرآن العظيم (تفسير سورة قريش)، دار ابن حزم، 2000م، لبنان، ط1، ص 2034

³ (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي)، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1989، بيروت، ط م، ص 208-209

⁴ سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والآداب، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص10

➤ الرحلة اصطلاحاً :

الرحلة في الاصطلاح هي من الارتحال، وتعني الانتقال من مكان إلى آخر من أجل تحقيق هدف معين، سواء كان مادياً أو معنوياً ؛ فالإنسان لا يرحل دون سبب، بل يكون وراء رحلته دافع يدفعه إليها، وقد يكون هذا الدافع خاصاً به أو متعلقاً بأمور عامة ،¹ وفي هذا السياق يعرفها صلاح الدين الشامي بقوله: « إن الرحلة تظل إنجازاً أو فعلاً أو مباشرة لما يعنيه، أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه وقد تكون الرحلة هواية تستهوي الإنسان و تشبع حاجاته وقد تكون الرحلة إنجازاً صعباً و شاقاً على الطريق، بين المكان و المكان الآخر ».²

فالرحلة هي ذلك اللون من التأليف الذي يجمع بين الدافع الوجداني العميق، والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة ودقة، وهي من الآثار الأدبية وانطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد

¹ عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام: أنواعها وآدابها، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2008، ص15

² صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ص 11

مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي شاهدها، أو يسرد مراحل رحلته وما توقفت عليه عين الرحالة من جماد وغيره.¹

أما الحركة خلال الرحلة بقطع المسافات فهي السفر، وجمعه أسفار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا....﴾² ، والحركة جوهر الرحلة، وهي مكون أصيل من مكونات الإنسان لأنها دليل على الحياة²، كما عرف الإمام الغزالي الرحلة بأنها: «نوع حركة ومخالطة، أو نوع من مخالطة مع زيادة تعب ومشقة، وأوضح بأن الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه، وإما أن يكون له مقصد ومطلب»³، أي أن الإنسان لا يسافر إلا في غرض معين والغرض هو المحرك سواء تعلق بأمور دنيوية أو دينية؛ لطلب العلم أو العبادة مثل الحج، ولقد حثت السنة النبوية المطهرة على الرحلة وجعلتها باباً من أبواب الجنة، ويتجلى ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة».⁴

ومن خلال هذه التعريفات، نلاحظ أن معنى الرحلة في اللغة والاصطلاح متقارب، فكلاهما يقوم على فكرة الحركة التي يحقق منها الإنسان فوائد عدة، فهي في أغلب الأحوال سلوك إنساني حضاري يؤتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة؛ فالشخص الذي يقوم بالرحلات ليس هو

¹ العيفة خطوي، "أدب الرحلة في التراث الجزائري"، مجلة بدايات، جامعة عمار ثليجي (الأغواط)، الجزائر، المجلد 05، العدد 01، جانفي 2023، ص 120.

² عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي، الرحلة في الإسلام: أنواعها وآدابها، ص 15

³ الغزالي (أبو حامد): إحياء علوم الدين، بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1426هـ/ 2005م، ج2، ص 713.

⁴ المرجع نفسه، ص 714.

نفسه الشخص الذي يبقى في مكانه ولا يتحرك، وقد أشار إلى ذلك **المسعودي** بقوله : « ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكنمه ».¹

لقد ورد التخييل في الكثير من المعاجم العربية بمعان مختلفة نذكر منها :

ورد لفظ التخييل في " لسان العرب " بمعنى الظنّ والتشبه والتصوّر، يقول ابن منظور: « خال الشيء خَيْلاً وخَيْلَةً وخَيْلاً وخَيْلَانًا ومُخَايَلَةً ومُخَيِّلَةً وخَيْلُولَةً»، والخيال والخيّالة: « ما يُشَبَّه لك في اليقظة والحلم من صورة، وجمعه أخيلة»، والخيال أيضاً: « كساء أسود يُنصب على خشبة أو عود، يُحَيَّل به للبهائم والطير فتظنه إنساناً»، لا وَحَيَّلَ عليه تخيلاً: وَجَّه إليه التهمة وَتَحَيَّلَتِ السَّمَاءُ: أي تَغَيَّمت، يُقال: حَيَّلَتِ السَّحَابَةُ إذا غَامَت ولم تمطر.²

¹ فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص 21.

يُحَيَّلُ به للبهائم والطير فتظنه إنساناً ويُقال له الفَرَّاعَةُ»، والخيال عند الحكماء قوة تحفظ ما يدركه الحِسُّ المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة، بحيث يشاهدها الحِسُّ المشترك كلما التفت إليها، فهو خزانة الحِسِّ المشترك ومحله مؤخر البطن الأول من الدماغ، ويضيف أن "الخيالي" يُطلق على الصورة المرتسمة في الخيال والمتأدية إليه من طريق الحواس، أو على المعدوم الذي اخترعته المتخيلة وركبته من الأمور المحسوسة، ومنه طَرَف التشبيه الخيالي عند البيانين وهو ما تُحَيَّلُ في ذهن من أشياء.¹

وعطفاً على ما سبق، يمكن القول إن التخيل هو ما يتكون في ذهن الإنسان من صور قد لا تكون موجودة أمامه، فهو مرتبط بالتصور والوهم، أي أن الإنسان يستطيع أن يستحضر في عقله صورة ذهنية لأي شيء دون الحاجة لوجوده المادي أمام الحواس، مما يثبت أن عقل الإنسان قادر على تخطي قيود الواقع.²

➤ التخيل إصطلاحاً :

¹ بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة 1987، ص 264

² عبود، أوريدة، التخيل الذاتي في العملية السردية بين المفهوم والتأسيس. مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، المجلد 17 العدد 02، 2020م، ص 433

التخيل نشاط ذهني يعبر به الإنسان عن تفاعله النفسي مع العالم وانفعاله الوجداني بمواضيعه وأشياءه، وهو فعل غير مقصور على فئة دون أخرى أو على جنس دون سواه، بل يشترك فيه كل الناس، ولا يختلفون إلا في نوعية توظيفه ودرجته¹.

وفي هذا السياق يقول ابن دريد في تعريفه للخيال: «ما ظهر لك ليلاً أو نهاراً مما لا تُحَقِّقه»، وهي عبارة تدل على أن الإنسان - في لحظة تمثله للأطياف والخيالات وليس بعد ذلك - يشك ويرتاب في واقعيتها، فمن جهة لا يتحقق من وجودها العيني والمادي، ومن جهة ثانية لا يستطيع - بحكم حالته النفسية ووعيه الإدراكي - أن يتخلص من وقعها في نفسه وتأثيرها في فكره، وذلك بسبب مشابقتها للظواهر الحسية ومماثلتها لها².

كما كان للقرآن الكريم دور كبير في ترسيخ العلاقة بين الخيال والانفعال النفسي، وإثراء فعل التخيل، وذلك بربطه بمجال السحر، وذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (طه : 66)، فالتخيل نتيجة لفعل السحر، ونستشف ذلك من تفسير الطبري للآية وذكر أن السحرة سحروا عين موسى وأعين الناس قبل أن يلقوا حبالهم وعصيهم، فخيال حينئذ إلى موسى أنها تسعى، وبذلك فالمعنى الذي ترسخه الآية الكريمة أن التخيل فعل يبرز الأشياء على غير هيئتها وخلافاً لطبيعتها، ويتحقق بضرب من الاحتيال والتمويه، وغايته إخراج

¹ يوسف الإدريسي، مفهوم التخيل في النقد والبلاغة العربيين: الأصول والامتدادات، ط1، الرياض: مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015م، ص 25

² المصدر نفسه، ص 34.

الإنسان بشكل غير واعٍ من لحظة الإدراك الواقعي إلى لحظة الإدراك الخيالي، بحيث يتوهم واقعية الأشياء والتشكلات الماثلة أمامه وتتبدى له بصور مبهرة وعجبية¹.

وبالعودة للشروحات الفلسفية اليونانية، فإن كلمة خيال "Phantasia" تشير عند أفلاطون إلى الملكة النفسية التي تنتج الصور الذهنية، غير أن هذا الخيال لا يأخذ بالقياس، ولكنه يتوسل في صناعة مواضيعه والحكم عليها بالمحاكاة، إذ يعتبر أفلاطون المحاكاة وسيلة جمالية للعمل الفني وأداة تمثيلية ملازمة للحركة الذهنية للخيال، إذ من تفاعلها وتمازجها يتولد الإبداع، وتشكل الرؤى الخيالية للعالم والأشياء².

فالتخيل هو نشاط تمثيلي لا يهدف إلى صوغ نسخ حرفية مطابقة للأصل، ولكن يسعى إلى خلق عوالم "خيالية" مشابهة للعالم المادي، وعن طريق هذه المشابهة ينشد تقديم معرفة جديدة بالعالم ورؤية مغايرة له، ويتضح أن الخيال عند أفلاطون يرتبط بالمحاكاة، ومن خلالها تتشكل صور عن العالم، لكنها تظل مجرد تقليد للواقع ولا تكشف حقيقته، بل تقدم عوالم مشابهة له فقط³.

أما أرسطو فقد أفرد في كتابه "في النفس" حيزاً لدراسة الخيال بالنظر في جانبه الإدراكي لا الإبداعي، فيقول: «ليس القوة الباطنية للإدراك التي تسهر على خلق الصور وتشكيلها، وإنما التمثيلات الذهنية والصور الخيالية التي تنطبع في النفس، وتحرك مشاعر الإنسان وتؤثر في وعيه بطريقة

¹ المصدر نفسه ، ص 41 .

² المصدر نفسه ، ص 67 .

³ المصدر نفسه ، ص 68 .

تشكلها وأسلوب تظهرها أمامه وبدرجة مفاجئاً لها»¹ ، والخيال هنا استجابة للآمال والذكريات التي تنبعث في الذهن، وتثير في نفس الإنسان متعة شعورية قوية وعميقة، لكنها متعة عابرة تزول حين تعود النفس لحال إدراكها الطبيعي المحكوم بالتفكير العقلي².

ويمكن استنتاجاً من هذا التصور أن الخيال عند أرسطو هو قدرة ذهنية تقوم على تشكيل الصور في النفس واستدعاء الذكريات والآمال، وتؤثر في انفعالات الإنسان وإدراكه، واحتل مصطلح «المحاكاة» في شعرية أرسطو موقعا نظريا جوهريا، ومثل الخيط الناظم لتصوراته الجمالية؛ وقد قصر توظيفه على الشعر، وربطه بالعمل الفني بمختلف أجناسه وأشكاله، فكانت المحاكاة محور "كتاب الشعر"، وجوهر أشكال التعبير الجمالي المطلق، وهذه المحاكاة هي التي كانت تشتغل أحيانا بوصفها إبدالا لمفهوم التخيل الشعري ، ويتبين من خلال ذلك أن أرسطو ربط بين الخيال والمحاكاة في بناء العمل الأدبي، فالخيال عنده يقوم على تشكيل الصور والتأثير في النفس، بينما تمثل المحاكاة الأساس الجمالي الذي يقوم عليه التخيل الشعري، من خلال إعادة تمثيل الواقع والأفعال الإنسانية في صورة فنية³.

وفي الفكر العربي الإسلامي عرف الكندي التخيل الذي لم يذكره كمصطلح بل ترجمه لكلمة "توهم"، وقال إن التوهم هو الفانطاسيا، وهي عنده قوة نفسانية مدركة لصور الأشياء المحسوسة مع غيبة طينتها عن الحواس، وهي القوة التي تتوسط ما بين الحس والعقل، وتمارس نشاطها

¹ المصدر نفسه ، ص 69 .

² المصدر نفسه ، ص 70 .

³ المصدر نفسه ، صفحة نفسها .

الذهني مع عملية الادراك الحسي، لتثير القوة النزوعية للمتلقى فتبعثها على التحريك والاستجابة للأمر المخيل، ومن ثم ينتهي الأمر بالمتلقى إلى اتخاذ وقفة سلوكية خاصة¹.

كما أردف إسحاق بن حنين التخييل والتوهم وهما عنده أمر واحد، يندرج في إطار قضية الصدق والكذب في العملية الشعرية، ويتضح ذلك في قوله: «إن التوهم حال يتخيل لنا فيها شيء ليس بموجود بالحقيقة ولا نقول إن التوهم شيء منقول اسمه فيكون واحد من التي يقضي بها؛ فإما صدقاً وإما كذباً؛ فهو قوة ابتكارية يمتلكها الأديب بثقافته وتأمله الواسع في العالم المحيط بنا، ليخلق به عالماً جديداً له قدرة على التأثير وإثارة العجب في المتلقى، ولا يخفى هنا وجه ترادف كلمة التخييل عنده بمعان مرادفة لكلمة تخيل وتوهم وخيال وفنطاسيا»².

أما التخييل عند الفارابي فيعد أساساً للشعر إلى جانب المحاكاة، غير أن المحاكاة تُعد وسيلة من وسائل التخييل، ولذلك يقول: «الأقاويل منها ما هي جازمة، ومنها ما هي غير جازمة، و الجازمة منها ما هي صادقة، ومنها ما هي كاذبة، والكاذبة منها ما يوقع في ذهن السامعين الشيء المعبر عنه بدل القول، ومنها ما يوقع فيه المحاكي للشيء، وهذه هي الأقاويل الشعرية»³، ويقول أيضاً

¹ حورية بن يطو، «مصطلح التخييل وإشكال الاشتقاق فيه في الفلسفة العربية الأولى: من الكندي إلى الفارابي»، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات - جامعة أدرار، المجلد 13، العدد 01، ماي 2025، ص 497

² المرجع نفسه، ص 498

³ ولدكرادة حكيمة، «التخييل في الموروث النقدي العربي»، مجلة اللغة العربية، جامعة مستغانم، المجلد 23، العدد 01، السنة: الثلاثي الأول 2021، ص 77

في "كتاب الشعر": «فقوام الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولاً مؤلفاً مما يحكي الأمر... وأعظم هذين في قوام الشعر هي المحاكاة»¹.

يرى الفارابي أن التخيل والمحاكاة يشكّلان أساس الشعر وقوامه، غير أن المحاكاة تُعد شرطاً أولياً لقيام التخيل، إذ تُعد وسيلة لتمثيل المعاني وإحداث أثرها في ذهن السامع، حيث تتشكل الصورة في الذهن عبر التخيل الذي تقوم عليه المحاكاة².

وامتداداً لذلك، يرى ابن سينا أن القوة المتخيلة تتركب بعض ما في الخيال مع بعض وتفصل بعضه عن بعض بحسب الاختيار، ونتيجة لفاعلية المحاكاة التخيلية، يشبه ابن سينا محاكاة الشاعر بمحاكاة المصور، فكل واحد منهما محاكٍ، والمصور ينبغي أن يحاكي الشيء الواحد بأحد أمور ثلاثة: «إما بأمور موجودة في الحقيقة، وإما بأمور يقال إنها موجودة وكانت، وإما بأمور يظن أنها ستوجد وتظهر؛ فلذلك ينبغي أن تكون المحاكاة من الشاعر بمقالة تشتمل على اللغات والمنقولات من غير التفات إلى مطابقة الشعر للأقاويل السياسية التعقيلية»³.

هكذا يفرد ابن سينا شرطاً للمحاكاة مبيّناً أثرها دون أن يغفل دور التخيل وفضله في الإدراك، حيث يقول: «وللمحاكاة التي في الإنسان فائدة، وذلك في الإشارة التي تحاكي بها المعاني فتقوم مقام التعليم، فتقع موقع سائر الأمور المتقدمة على التعليم، وحتى إن الإشارة إذا اقترنت بالعبارة

¹ المرجع نفسه الصفحة نفسها

المرجع نفسه، ص 782

³ المرجع نفسه الصفحة نفسها

أوقعت المعنى في النفس إيقاعًا جليًا وذلك لأن النفس تنبسط وتلتذ بالمحاكاة فيكون ذلك سببًا لأن يقع عندها الأمر أفضل موقع «، ويتبين من ذلك أن المحاكاة عند ابن سينا تقوم على تمثيل المعاني والصور في الخطاب الشعري، وتكتسب قيمتها من قدرتها على التأثير التعليمي والانفعالي في النفس، مع ارتباطها الوثيق بملكة التخيل¹.

أما عبد القاهر الجرجاني، فالتخيل عنده هو كيفية خاصة في الرؤيا وآلية في تمثل وتمثيل وقائع العالم وعلاقاته، تقوم على إعادة تفسير الواقع وتأويله بطريقة فنية مبتكرة، حيث يتأسس الأثر الجمالي على الإيهام والتأثير في النفس قبل التأثير في الواقع الخارجي، والتخيل عنده يرتبط بقدرة الشاعر على بناء صور توهم المتلقي بصدقها، مع أنها في حقيقتها إعادة صياغة فنية للواقع، وهو ما يجعل الشعر قريبًا من السحر في أثره النفسي، لأنه يعتمد على المتعة والانفعال أكثر من اعتماده على المطابقة الحرفية للواقع²، كما يشبه الجرجاني هذا الفعل بما يقع في الفنون البصرية مثل الرسم والنحت؛ لأن جميعها تقوم على إعادة تشكيل العالم في صور جديدة، تثير الدهشة والانفعال، وتمنح للأشياء العادية بعدًا جماليًا مختلفًا.

في حين يرى حازم القرطاجني أن التخيلات لا تتحقق إلا عبر الصور الذهنية التي تتكون في النفس من خلال المحسوسات، وأن التخيل تابع للإدراك الحسي، إذ لا يمكن أن ينفصل عن الواقع الخارجي، بل ينطلق منه ليعيد تشكيله في الذهن بصورة فنية، ويرى أن المحاكاة تنقسم إلى محاكاة

¹ المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

² المرجع نفسه، ص 84 .

مباشرة للشيء ومحاكاة غير مباشرة له، وأن التخيل هو ما ينتج عن هذا التفاعل بين الصورة الذهنية والواقع الخارجي، حيث يتحول المعطى الحسي إلى بناء تخيلي داخل الذهن¹.

وفي النقد الحديث، يؤكد جابر عصفور ضرورة عدم فصل التخيل عن الخيال والمحاكاة، لأن هذه المفاهيم تعمل معاً داخل العملية الإبداعية؛ فالمحاكاة تمثل الواقع، والخيال يعيد تشكيله في الذهن، والتخيل هو الأثر الجمالي الناتج عن هذا التفاعل².

كما ترى ألفت كمال الروبي أن النص الشعري يتحرك بين هذه الأبعاد الثلاثة: «فهو محاكاة من جهة علاقته بالواقع، وتخيل من جهة إنتاج الصور، وتخيل من جهة تأثيره في المتلقي»³، مما يجعل العملية الإبداعية قائمة على تداخل هذه المستويات بشكل متكامل.

ومما تقدم ذكره، يتضح أن مفهوم التخيل انتقل عبر تطوره الفلسفي والنقدي من كونه قدرة ذهنية مرتبطة بالإدراك إلى كونه آلية جمالية لإنتاج المعنى داخل النص، ومن ثمة التأثير في المتلقي واتخاذ وقفة سلوكية إما بالقبول أو الرفض.

● مفهوم التأريخ :

➤ التأريخ لغة :

1 المرجع نفسه، ص 85

2 حورية بن يطو، مصطلح التخيل وإشكال الاشتقاق فيه في الفلسفة العربية الأولى، ص 500

3 المرجع نفسه، ص 501

ذكر أهل اللغة فيه معاني عدة فمن قائل: «إن التاريخ هو الإعلام بالوقت، أو التعريف بالوقت»، يقال: «أرخت المولود أو الحدث في يوم كذا، أو أرخت الحادثة الواقعة في بلد كذا أي عرفت بالوقت أو حددتها بالوقت أو أعلمت بوقتها»¹.

ونقل صاحب "كشف الظنون" عن بعض أهل اللغة: «أن التاريخ هو تعيين وقت ينسب إليه زمان يأتي عليه أو مطلق الزمان، سواء كان ماضياً أو مستقبلاً»؛ وقيل أيضاً فيه: «إنه تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع، من ظهور ملة أو دولة أو أمر هائل مما يندر وقوعه»، وهذا معنى واضح ومهم؛ لأن الأحداث مرتبطة بالزمن، إضافة إلى أن بعض الحوادث تجعل مقياساً تاريخياً، على سبيل المثال حادثة الفيل، يقال فيها: ولد بعد عام الفيل بعامين، ولد قبل عام الفيل بكذا، أي: أن هذه الحادثة كانت عظمة وهائلة وغير مألوفة ونادرة وليست متكررة، فعرفها الناس وتناقلوا خبرها، وضبطوا وقتها، ثم جعلت مقياساً بعد ذلك².

وكما أرخ المسلمون أيضاً في عهد عمر رضي الله عنه بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها كانت حدثاً عظيماً ترتب عليه بناء الدولة الإسلامية، والتحاق المسلمين بالنبي عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة، فجعل هذا الحدث العظيم الذي هو حدث نادر غير متكرر مقياساً تاريخياً، ولا يزال حتى هذا اليوم مقياس تاريخنا إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم³.

¹ علي بن عمر بادحدح، دروس للشيخ علي بن عمر بادحدح، المكتبة الشاملة، 2023م، الجزائر، طبعة المكتبة الشاملة، ج

51 (جولة في مصادر تاريخية)، ص 509

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ المرجع نفسه، ص 509

➤ التأريخ إصطلاحاً :

تعددت جهود العلماء في وضع حدٍّ اصطلاحى لعلم التاريخ، فتنوعت تعريفاتهم بين الوصف والتحليل والتدوين الزمني، ومن أبرز هذه التعريفات:

تعريف صاحب "كشف الظنون" حيث يرى أن التاريخ هو: «معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم»، وهذا التعريف شامل للأبعاد الثلاثة التي هي: البعد المكاني، والبعد الزمني، والبعد الإنساني المتعلق بالأشخاص¹.

ويعرف ابن خلدون التاريخ بأنه: «إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق»².

كما يرى بأنه في حقيقة أمره: «نظر وتحقيق أي تأمل ودراسة وفحص مختلف أوجه النشاط البشري فيما مضى من العصور يقصد رصد أسباب الظواهر التاريخية المختلفة، ومحاولة كشف جوانب العلاقة السببية في طيات الأحداث التاريخية، ورصد بدايات الأحداث ومعرفة أصولها»³.

¹ المرجع نفسه، ص 510

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ سعد بن محمد عمر عبد الرحمن، مفهوم التاريخ ومكانة التاريخ في الثقافة الإسلامية، شبكة الألوكة، 2017م، الجزائر

ويعرف السخاوي التاريخ بأنه: «التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاتهم»¹، ويرى أيضاً أنه: «فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيف بل عما كان في العالم»².

وهكذا، من خلال هذه التعريفات يتضح لنا أن التأريخ علم يتعلق بالمكان والزمان بما فيه من وقائع وأحداث، وما يكون لها من أثر في حياة الناس، و جمع للمعلومات والأخبار عن البلدان، وعن الأشخاص من حيث النشاط البشري الإنساني عبر الزمان، وكذلك عن الزمن وما يتعلق به من هذه الأحداث والأشخاص³.

¹ علي بن عمر بادحدح، دروس للشيخ علي بن عمر بادحدح، ص 510
² سعد بن محمد عمر عبد الرحمن، مفهوم التاريخ ومكانة التاريخ في الثقافة الإسلامية .
³ علي بن عمر بادحدح، دروس للشيخ علي بن عمر بادحدح، المكتبة الشاملة، ص 510

الفصل الأول

أدب الرحلة في الجزائر

المبحث الأول: مفهوم أدب الرحلة لغة وإصطلاحاً
المبحث الثاني: نشأة أدب الرحلة وخصائصها في الجزائر
المبحث الثالث: أشهر الرحالة الجزائريين ورحلاتهم

• ماهية أدب الرحلة وخصائصه:

➤ ماهية أدب الرحلة :

يواجه الباحث في أدب الرحلة صعوبة كبيرة عند محاولة وضع تعريف دقيق وموحد له؛ والسبب في ذلك يعود إلى صعوبة التفريق بينه وبين فنون أخرى كالقصة والرواية والسير، فهو نص جامع لاختصاصات كثيرة، ولعل هذا ما جعله محل نزاع بين الجغرافيين وعلماء الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا¹ ، ويؤكد الباحث **جبور الدويهي** هذا الانفتاح بقوله إنه: «نص غير واضح الحدود، يمكن أن يُسكب فيه أي شيء»؛ وعليه فهو فن يمتاز بالموسوعية مقارنة بالفنون الأخرى².

وقد ورد في معجم المصطلحات الأدبية أن أدب الرحلة هو: «مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد»³.

نزلت الرحلة في الأدب منزلة رفيعة، وأصبحت فنا من الفنون الشائعة في معظم بلدان العالم، وقد ساعد على ازدهارها اختلاط الشعوب، وسهولة المواصلات وحب الاطلاع ومعرفة ما في العالم من عادات وأخلاق⁴ ، بحيث يرى **جبور عبد النور** أن: « أدب الرحلة يقتضي التأليف فيها ثقافة

¹ نصيرة بحري، أدب الرحلة: إشكالية المصطلح ووثوقية المفهوم "مجلة حوليات التراث"، جامعة مستغانم، الجزائر، ص51

² المرجع نفسه الصفحة نفسها .

³ مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ص17

⁴ جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1984، ص121

واسعة ودقة في الملاحظة، والتقاط الملامح المعبرة، ومشاركة في معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ، والجغرافية، والفلسفة، والاجتماع، والأدب؛ وتفرض الأناقة في تحيّر المفردات، وصياغة العبارات، وتنسيق الفصول»¹.

أما عند أنجيل بطرس، فإن أدب الرحلات هو: « ما يمكن أن يوصف بالرحلات الواقعية التي يدون فيها الرحالة وصفاً يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة وجمال الأسلوب»، مبيناً أن طرفي هذا النوع هما الموضوع الرحلة ذاتها وشخصية الرحال المحبة للترحال، بطبعها وهناك صفتان عامتان لا بد من توافرها في أدب الرحلات وهما:

أولاً : أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالا بطبعه محبا للرحلات .

ثانياً : أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها. وهكذا يمكن القول بأن طرفي هذا النوع من الأدب هما: الموضوع أو الرحلة ذاتها.

من ناحية، وشخصية الرحال من ناحية أخرى. ولعل خير أمثله أدب الرحلات هو ما يكشف عن شخصية الرحال، بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التي ينتقل بينها، والناس الذين يلتقي به ².

وأدب الرحلات ذو قيمة عالية فيما يرى **محمد الفاسي**، فهو نوع قائم بذاته، وأساس هذا النوع هو شخص المؤلف وأنيته، ووصفه ما يعرض له في سفره، وذكر الإحساسات التي يشعر بها أمام

¹ المصدر نفسه ، ص122

² ناصر عبد الرازق المواني، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م، ص 38

المنظر التي يمر بها، مع إطلاعنا على أحوال البلاد التي يزورها، وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم وأفكارهم، وهو في كل هذا - يعبر عن نفسه وعن عواطفه، وعن وجهة نظره الخاصة في كل¹.

ويشير الباحث ناصر عبد الرزاق المواني إلى أن أدب الرحلات هو: «ذلك النثر الذي يصف رحلة واقعية قام بها رحالة متميز، موازناً بين الذات والموضوع بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه؛ وتتلخص الشروط الأساسية لهذا التحديد في الطابع النثري، وشرط الواقعية، وشرط تميز الرحالة»، غير أن هذا التعريف رغم شروطه لا ينفي اعتماد بعض الرحلات على الخيال أو كتابتها شعراً، على اعتبار أن أدب الرحلة عمل فني يمتزج فيه الواقع بالخيال².

وعرفه الباحث عمر بن قينة بأنه لون أدبي ذو طابع قصصي، وضرب من السيرة الذاتية في مواجهة الظروف واكتشاف الأقطار، فهو وصف لكل ما انطبع في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته؛ ونلمس في هذا التعريف سمات جوهرية هي الدقة في الوصف ونقد الأوضاع وتصوير الحقائق، كما يحيط بالأساسيات التي تشكل النص الرحلي وهي: الرحالة، السفر، الوصف، والموضوعية³.

وفي ذات المنحى، يعرفه الدكتور شوقي ضيف بأنه: «كتابات تصور أحوال الناس والعمران بالعين الباصرة اللافطة، ويصاغ في أسلوب قصصي بديع يؤكد الواقع أحياناً وينشئ عوالم خيالية أحياناً أخرى»، معتبراً هذا الفن خير رد على تهمة قصور الأدب العربي في فن القصة، حيث تأتي

¹ المصدر نفسه، ص 39

² نصيرة بحري، أدب الرحلة: إشكالية المصطلح و وثوقية المفهوم، ص 54

³ المرجع نفسه، صفحة نفسها

الإثارة فيه من الوصف الطريف والسرد الفني للمغامرة والعواطف المحركة للبشر، والشخصيات التي يحتفظ كل منها بميزاته الفردية¹.

إن الإثارة في الرحلة متأتية من الوصف الطريف للواقع والسرد الفني للمغامرة الانسانية، والعواطف المحركة للبشر، ونابعة أيضا من أنواع الشخصيات التي تبرزها بحيث تبدو للقارئ متوافقة في كثير من نزعاتها، ومتفاوتة في جوانب أخرى ليحتفظ كل منها بميزاته الفردية².

وبناءً على ما ذكرناه، نخلص إلى أن أدب الرحلة هو: « كتابة نثرية تجمع بين السرد والوصف، حيث يحاول الرحالة من خلالها نقل كل ما شاهده في سفره بأسلوب مشوق، ليقدم فائدة ومعرفة له وللناس من بعده».

➤ خصائص أدب الرحلة :

تتميز الرحلة بعدة خصائص نذكر منها³:

1-هيمنة بنية السفر: يعد السفر بنية مهيمنة تخضع لها باقي مكونات الرحلة، وبهذه الهيمنة يصبح

هو الناظم لمختلف مكوناتها من سرد، ووصف، وأخبار، وحكايات، وأشعار، ومعارف متنوعة.

¹ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: الفن القصصي (الرحلات)، ط4، القاهرة: دار المعارف، ص5

² جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 122

³ جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2014/2015،

ويعني ذلك أنه العنصر المؤطر لكل العناصر الأخرى، والإطار العام الذي ينظم سياقها الزمني والمكاني .

2- الذاتية: تعتبر الرحلة سرداً لسفر قامت به "الذات"، حيث تحضر ذات الرحالة وتصطبغ الرحلة بألوانها. وهذه الذات هي المركزية التي تقوم بفعل الرحلة وتقوم بتلخيص تلك الرحلة، وهي لا تنفصل عن ثقافتها ومعتقداتها ورؤيتها للعالم، حيث يصطبغ الحكى بأحاسيسها وميولاتها وعواطفها ومرجعيتها الثقافية. فالرحالة عندما يرحل، لا يرحل بجسده فقط .

3- الحكى بضمير المتكلم: يتجلى حضور الذات في أسلوب الكتابة من خلال الحكى بضمير المتكلم مفرداً أو جمعاً ، وبما أن الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، فإن هذا الضمير يعكس تطابق الذات الحاكية مع الشخصية التي عاشت التجربة فعلياً .

4- الواقعية: الرحالة الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض. وهذه الخصوصية تتميز الرحلة عن الرواية والمقامة المبينتين على الخيال، كما يشترط في هذا الجنس أن يكون السفر محكياً عنه وهو السفر الذي أنجزه الرحالة فعلياً.

5- دور الخطاب بالرجوع إلى نقطة الإنطلاق: يبدأ الخطاب مع انطلاق الرحالة من موطنه ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق. فخطاب الرحالة مع الرحلة، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية؛ يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه، وكلما انتقل الرحالة في المكان وصولاً إلى النهاية والرجوع إلى نقطة الانطلاق.

6- تعدد المضامين وتداخل الخطابات: يشتمل الخطاب الرحلي على معارف متنوعة دينية وتاريخية

وجغرافية، وتتداخل فيه خطابات مختلفة كالشعر والرسالة والحكاية والوصف والسرد، وهذا

التداخل هو ما يمنح الرحلة خصوصيتها التي تجعلها جنسا مستقلا ببنائه وخصائصه.

7- المعرفة في الخطاب الرحلي: تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة منها ما هو ديني وتاريخي

وجغرافي وأدبي واجتماعي، والرحالة يسعى من خلالها إلى إفادة القارئ بما يظنه مفيداً له، وبهذا تحقق

الرحلة هدفها في تعليم بعض الأشخاص بعض الأشياء. ويقدم الراوي هذه المعرفة الموضوعية بشكل

خاص أثناء عملية الوصف .

8- التناوب بين السرد والوصف: الكتابة الرحلية لا تنفك عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه ما

دامت تنقل إلى المتلقي أفعالا قامت بها الذات الكاتبة ، ويعد السرد والوصف نمطين خطابين؛

فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك (الفعل في الزمان) ويصف حين يتحدث عن الساكن

(المكان والأشياء والأشخاص)؛ وبهذا التناوب، يقدم الراوي تجربة ذاتية أثناء السرد وأثناء الوصف

• نشأة وتطور أدب الرحلة في الجزائر :

➤ نشأة أدب الرحلة في الجزائر :

لقد احتلت الرحلة الأدبية حيزاً معتبراً في التراث العربي الإسلامي، وتميزت بكونها فناً يمتزج فيه

الواقعي بالخيال الإبداعي، وبالنسبة لمنطقة المغرب العربي والجزائر، فقد كان لبعدها الجغرافي عن مراكز

الأماكن المقدسة مكة والمدينة وعن المراكز العلمية في بغداد ودمشق والقاهرة دوراً أساسياً في دفع

المغاربة للارتحال؛ رغبةً في صلة الرحم بتلك البقاع وتلقي العلم عن كبار الشيوخ. ومن هنا نشأ "أدب الرحلة" بوصفه نثراً أدبياً بلامح فنية مستقلة، شكلت فيه الجزائر محطة بارزة، لا سيما في القرن الثامن عشر الميلادي (12هـ)¹.

وعند تتبع مسار الرحلة عند الجزائريين في العهد العثماني، نجد أنها لم تكن كثيرة من حيث العدد، ولكنها كانت مهمة من حيث القيمة العلمية والتاريخية، إذ أصبحت الرحلات في هذه المرحلة وثائق تعكس واقع المجتمع والثقافة في تلك الفترة.

ارتبطت بدايات هذا الاهتمام بنوعين من الرحلات؛ فهناك رحلات حجازية تمثلت في ما أورده المقرئ في "نفح الطيب" عن جده محمد بن محمد المقرئ التلمساني، الذي قام برحلة إلى المشرق شملت القاهرة ودمشق ومكة، حيث اتصل بعلماء هذه الحواضر وطلب العلم هناك، إضافة إلى محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي اشتهر بتجواله في إقليم توات والحجاز، حيث التقى بعدد من العلماء وأجرى مناظرات علمية².

كما برزت رحلات علمية، من أبرزها رحلة ابن قنفذ القسنطيني الذي تنقل بين تلمسان والمغرب في إطار طلب العلم ومجالسة أهل المعرفة والتصوف، إضافة إلى عبد الرزاق بن حمادوش الذي

¹ عثمانية (أحلام)، محاضرات في أدب الرحلة الجزائري، مطبوعة بيداغوجية، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة 8 ماي 1945 - قالة، الجزائر، 2019 - 2020 ص 22

² المرجع نفسه، ص 23

جمع في رحلته بين طلب العلم والتجارة، وانتقل بين الجزائر وفاس ومكناس، وسجل ملاحظاته الدقيقة حول الحياة السياسية والاقتصادية في مذكراته الشهيرة "رحلة لسان المقال"¹.

• تطور الرحلة في الأدب الجزائري:

شهدت الرحلة في الأدب الجزائري الحديث تحولات هامة بدأت ب بروز الرحلة الذاتية والنضالية، ويمثلها الأمير عبد القادر الذي دون رحلته إلى الحجاز والشام وبغداد ضمن مذكراته التي تروي سيرته الذاتية، وعلى الرغم من إيجازها لتركيزه على الجانب النضالي، إلا أنها قدمت مساراً دقيقاً لرحلته وأعماله والعلماء الذين لقيهم وانطباعاته حول سكان البلدان التي اجتازها².

ثم ظهرت الرحلة السياسية بنماذج متكاملة اتجهت نحو باريس عام (1852م)، مثل رحلة سليمان بن الصيام المعروفة بـ "الرحلة الصيامية"، ورحلة محمد السعيد بن علي الشريف؛ حيث زارا فرنسا ضمن وفد رسمي لحضور تنصيب نابليون الثالث. وقد تميزت رحلة ابن علي الشريف بالمقارنة بين بيئته والجديد الذي شاهده بفضل ثقافته الفرنسية، بينما غلبت على رحلة ابن الصيام الصبغة الوصفية للطبيعة والآثار ومظاهر العمران، مع روح من المجاملة للإدارة الفرنسية. وتلا ذلك "الرحلة القادية" لأحمد بن قاد (1878م)، التي ركزت على الاختراعات والمصانع في المعارض الدولية، مبرزاً

¹ المرجع نفسه ، ص 24

² المرجع نفسه ، ص 75

الفوارق بين الوضع المشرق في فرنسا والوضع المزري في الجزائر المحتلة، وهو ما يعكس تدهور لغة الرحلات في تلك الفترة بسبب الاستعمار¹.

ومع حلول القرن العشرين، تغير مسار الرحلة الجزائرية هدفاً ومضموناً؛ فبعد أن كانت تتجه للخارج، ركزت في هذه الفترة على الداخل الجزائري مع رجال الحركة الإصلاحية، حيث برزت "تنقلات" الإمام عبد الحميد بن باديس التي سجل فيها زيارته للمدن والقرى بهدف تذكير الناس بدينهم وحثهم على النهضة، إلى جانب رحلته "في تونس العزيزة"، كما برزت رحلات البشير الإبراهيمي التي تميزت بالعناية الفائقة بالصياغة والجمال الأدبي، سواء داخل الوطن أو خارجه في المشرق العربي وباكستان وأوروبا، بهدف التعريف بالقضية الجزائرية والاتصال برجال الدي.²

وفي ذات السياق السياسي القومي، برزت رحلات أحمد توفيق المدني التي كانت الأكثر غزارة، خاصة بعد اندلاع الثورة التحريرية عام (1954م)؛ حيث جاب الأقطار العربية (مصر، سوريا، العراق، الكويت...) مصوراً التجارب العربي العميق مع الثورة الجزائرية، كما تظهر في هذه الفترة رحلة محمد المنصوري الغسيري (1953م) التي حملت طابع "العالم المصلح" في مقارنته بين المشرق المتحرر والواقع الجزائري المؤلم، بالإضافة إلى رحلات أخرى هامة مثل رحلة محمود بوزوزو إلى البرلمان الفرنسي، ورحلات حمزة بوكوشة والطبيب المهاجي إلى المغرب والحجاز.³

¹ المرجع نفسه ، ص 76

² المرجع نفسه ، ص 78

³ المرجع نفسه ، صفحة نفسها

وقد تطور فن الرحلة في المرحلة المعاصرة ليأخذ مسميات جديدة مثل "أدب المذكرات" أو "أدب السياحة"، كما نجد عند الدكتور عبد الله الركبي في كتابه "في مدينة الضباب ومدن أخرى" (2003م)، الذي مزج فيه بين التجربة المكانية في لندن وعواصم عالمية أخرى بأسلوب قصصي ممتع، وتبرز أيضاً رحلة أحمد رضا حوحو إلى الاتحاد السوفياتي (1950م) كقيمة علمية وصحفية هامة، ورحلة محمد علي دبوز إلى مصر، ورحلة أبو القاسم سعد الله العلمية إلى السعودية المعنونة بـ "رحلتي إلى الجزيرة العربية"، وصولاً إلى رحلات أحمد منور المتعددة بين أوروبا والمشرق العربي لأغراض سياحية وثقافية¹.

• أشهر الرحالة الجزائريين ورحلاتهم :

من يقرأ قصص الرحالة الجزائريين يجد أنها تمثل مخزناً للهوية الوطنية، إذ جمعت بين علوم الدين ووصف البلاد والخواطر الإيمانية والملاحظات عن أحوال الناس والسياسة، وقد كان الجزائري بطبعه ميّالاً إلى السفر؛ تاراً طلباً للعلم والمعرفة، وتاراً لأداء فريضة الحج، وتاراً أخرى للتنقل بين الحواضر والمشاركة في شؤون المجتمع والدفاع عن الوطن في أوقات الشدة، لذلك لم تكن كتابات هؤلاء الرحالة مجرد مذكرات شخصية، بل تحولت إلى سجل تاريخي حي كتبه علماء وأدباء بكل فخر، يعكس اعتزازهم بخصوصيتهم الثقافية وأصالتهم الراسخة، مما جعل أدب الرحلة في الجزائر جزءاً أساسياً من الثقافة العربية والإسلامية، ومن أبرز أعلام الرحلة الجزائرية في مختلف العصور: في فترة ما قبل العهد

¹ المرجع نفسه ، ص 80

العثماني (القرن 8-9هـ تقريباً) نجد المقرئ الجد أحمد بن محمد¹ الذي ارتبطت رحلته المشرقية برحلة

"المتبتل" وزار فيها القاهرة ودمشق ومكة، وعبد الرحمن الثعالبي² الذي تنقل في رحلته العلمية بين

بجاية وتونس والمشرق طلباً للعلم ومجالسة العلماء؛ وفي العهد العثماني (القرن 11-13هـ) برز

الحسين الورتلاني³ صاحب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" الذي وصف رحلاته بين

الحجاز والمغرب ورصد أحوال المجتمعات التي زارها، وعبد الرزاق بن حمادوش⁴ صاحب "رحلة لسان

المقال" الذي جمع بين طلب العلم والتجارة وتنقل بين الجزائر والمغرب الأقصى، وأبو راس الناصر

المعسكري⁵ الذي قام برحلة إلى المشرق شملت تونس ومصر والحجاز ودون فيها مشاهداته العلمية

¹ هو شهاب الدين المقرئ التلمساني (992-1041هـ/1631م - 1584هـ)، فقيه وأديب ومؤرخ. ولد بتلمسان وتولى الإفتاء بفاس، ثم ارتحل إلى المشرق فزار القاهرة وبيت المقدس والحجاز واستقر بالشام، وله رحلات علمية مشهورة. من أبرز مصنفاته "نفح الطيب". ينظر: نورة رحموني، وسعاد شابي «الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري»، مجلة رفوف، جامعة أحمد دراية أدرار، المجلد 7، العدد 119 2 جوان 2019م، ص 119

² هو عبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ)؛ عالم وفقه ومفسر جزائري، بدأت رحلته لطلب العلم سنة 802هـ من بلدة "يسر"، وتناهت به إلى "بجاية" حيث أخذ عن علمائها كأبي الحسن الماغلالي وأبي الربيع بن الحسن. ينظر العيفة خطوي، «أدب الرحلة في التراث الجزائري»، مجلة بدايات جامعة عمار ثليجي بالأغواط، المجلد 05 العدد 01 جانفي 2023م، ص 123

³ هو الحسين بن محمد الورتلاني السعيداني (ت 1193هـ/1779م)، عالم وفقه ومتصوف جزائري، ولد في بني ورتلان (بجاية)، وحج إلى بيت الله الحرام وله رحلة شهيرة زار فيها تونس وطرابلس ومصر والحجاز سماها نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار". ينظر: نورة رحموني وسعاد شابي، لرحلة والرحالة في الأدب الجزائري، ص 121

⁴ عبد الرزاق بن محمد الملقب بابن حمادوش الجزائري (ولد عام 1107هـ)، عالم موسوعي ورحالة جزائري، درس العلوم الشرعية واللغوية والرياضية والطبية، وتنوعت مؤلفاته ومن أشهرها "الجوهر المكنون في بحر القانون"، واشتهرت رحلته المسماة رحلة ابن حمادوش" أو "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والخلال" والتي اتسمت ببساطة الأسلوب ودقة الوصف الجغرافي والاجتماعي، وضمت سجلا لأخباره ورحلته إلى المغرب للتجارة والعلم. ينظر: العيفة خطوي، أدب الرحلة في التراث الجزائري، ص 124.

⁵ هو محمد بن أحمد بن عبد (2) القادر بن أبي رأس الراشدي / المعسكري (1165-1238هـ/1751-1823م)، علامة ومؤرخ ومحقق ومحدث جزائري. ولد بنواحي معسكر، وتولى الخطابة والقضاء، وله رحلات علمية عديدة ومصنفات كثيرة. ينظر: نورة رحموني، وسعاد شابي، «الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري»، ص 121.

والأدبية، وفي القرن التاسع عشر ظهر الأمير عبد القادر الجزائري¹ الذي قام برحلة إلى المشرق سنة 1825م شملت تونس ومصر والحجاز والشام وكانت رحلة تكوينية وسياسية في آن واحد، ومحمد بن السعيد بن علي الشريف² الذي زار فرنسا سنة 1852م ودون مشاهداته عن المجتمع الأوروبي، وسليمان بن الصيام³ الذي قام بعدة رحلات إلى فرنسا ووصف فيها مظاهر التقدم العلمي والتقني؛ وفي القرن العشرين برز الإمام عبد الحميد بن باديس⁴ من خلال تنقلاته داخل الجزائر لنشر العلم والإصلاح، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي⁵ الذي قام برحلات إلى المشرق للتعليم والتعريف بالقضية الجزائرية وجمع الدعم لها، لتبقى هذه الرحلات شاهداً على تفاعل الجزائري مع العالم ومساهمته في بناء الوعي العلمي والثقافي..

¹ هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني، المشهور بالأمير عبد القادر الجزائري (1223 - 1330 هـ / 1808 - 1883م)؛ قائد عسكري، ومجاهد، وشاعر صوفي وأديب، قاد المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، وقضى شطراً من حياته زاهداً ومتعبداً، وقام بعدة رحلات شملت تونس، والإسكندرية والحجاز، والشام، ودمشق وغيرها. ينظر: المرجع نفسه، ص 128.

² محمد السعيد بن علي الشريف، الملقب أبي الفضل (1214 هـ / 1796م)، فقيه (ومتصوف، ومؤرخ جزائري. كان له اهتمام بالتوحيد والفلك، ومن آثاره كتاب "التعريف بأخبار المالكيين الأخيار"، واشتهر برحلته إلى فرنسا عام 1852م لحضور مهرجان تنصيب نابليون الثالث ووصف فيها باريس والتقدم العلمي المادي ومقارنته بين العرب والغرب. ينظر: المرجع نفسه، ص 125.

³ سليمان بن الصيام (ت 1896م)، مترجم ورجال سياسة جزائري، ولد ببلدة مليانة الأسرة عريقة. كان مثقفاً واسع المعرفة وتولى مناصب إدارية وسياسية كبيرة، واشتهر برحلته الشهيرة إلى فرنسا رفقة وفد جزائري للمشاركة في احتفالات تنصيب نابليون الثالث ووصف فيها معالم باريس. ينظر: المرجع نفسه، ص 126.

⁴ عبد الحميد بن محمد بن (1) مصطفى مكي بن باديس (1307 1359 هـ / 1889-1940م)، رائد النهضة الإسلامية ومؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان مصلحاً، وعالماً، ومفسراً، ومريباً، وغرف برحلاته الدعوية والتعليمية ومنها رحلته الداخلية بين المدن والقرى الجزائرية كالحروش وعين مليلة ومستغانم وغيرها)، ورحلته إلى فرنسا ينظر: المرجع نفسه، ص 130.

⁵ محمد البشير بن محمد (1) البشير بن عمر الإبراهيمي (1306 1385 هـ / 1889-1965م)، من أكابر علماء الجزائر، وأديب ومصلح، ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلفا لابن باديس. هاجر إلى المدينة المنورة عام 1911م ودرس بها، ثم رحل إلى دمشق عام 1917م واشتغل بالتعليم، كما زار مصر وتونس وليبيا قبل عودته للجزائر عام 1920م. ينظر: المرجع نفسه، ص 133-134.

الفصل الثاني

رحلة المقرئ التلمساني أنموذجا

المبحث الأول: عرض موجز لرحلة المقرئ التلمساني إلى
المغرب والمشرق

المبحث الثاني: تجليات التخيل والتأريخ في رحلة
المقرئ التلمساني

➤ عرض موجز لرحلة المقرئ التلمساني:

لم تكن رحلة المقرئ إلى المغرب الأقصى مجرد سفرٍ عابر، بل كانت محطة مفصلية في تكوينه العلمي والسياسي؛ حيث بدأت عام 1009هـ بتوجيه من عمه سعيد المقرئ، الذي رأى في فاس حاضرة العلم التي ستتمم معارف ابن أخيه، وعند وصوله إليها، انغمس المقرئ في أجوائها العلمية، فخالط شيوخها وحضر مجالسهم، مما أثار إعجاب الفقيه إبراهيم بن محمد الآسي الذي اسصتجبه إلى مراكش عام 1010هـ، ليتصل هناك بالسلطان أحمد المنصور الذهبي ويتعرف على أعلام كبار مثل أحمد بابا التنبكتي وابن القاضي، ورغم عودته إلى تلمسان سنة 1011هـ عازماً على إتمام كتابه "روضة الآس العاطرة الأنفاس"، إلا أن وفاة السلطان حالت دون تقديمه، فعاد السفر إلى فاس سنة 1013هـ ليستكمل مشروعه العلمي، فألف فيها "أزهار الرياض" و"الجنابذ فيمن لقيته من الجهابذ"¹.

وقد شهدت هذه الفترة أحداثاً سياسية عاصفة عقب وفاة المنصور؛ حيث دخلت البلاد في صراع بين أبنائه المأمون، وأبو فارس، وزيدان الناصر، وكانت الحادثة الأخطر هي قرار المأمون تسليم العرائش للإسبان مقابل إعانتهم له، مما وضع العلماء أمام فتنة شرعية انقسموا فيها بين مبيع ومحرم، بينما اختار المقرئ الاختفاء ترفعاً عن الفتوى، ورغم هذه الظروف، بقي في فاس وترأس منصب الإفتاء رسمياً عام 1022هـ، وعندما قرر الرحيل نهائياً، ألح إلى أسبابه بلغة مفعمة بالآلم والبيان قائلاً

¹ فنيحة مرزوق، "الوضع الثقافي بمدينة الجزائر خلال القرن 17م من خلال الرحلات الحجازية رحلة المقرئ نموذجاً"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 02، العدد 01، جوان 2018، ص 117

بنصه الحرفي: « لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أورد ولا محيد عما شاءه سواه، كره ذلك المرء أو رد برحلي من بلادي ونقلتي عن محل طارقي وتلاذي بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه لولا أن سمسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً، وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء العبث في كامل رونقه من الزحاف إضمماراً وقطفاً ووقصاً »¹.

وهكذا غادر المقرئ فاس أواخر سنة 1027هـ، تاركاً وراءه زوجته وابنته وخزانة كتبه بعد أن قضى 14 عاماً في بلاد المغرب، متوجهاً نحو الحجاز بنية الحج والعمرة والترفع عن الفتن، معبراً عن ذلك بقوله الشهير: «...ثم ارتحلت بنية الحجاز، وجعلت إلى الحقيقة المجاز»²، انطلق المقرئ من ميناء تطوان عابراً البحر المتوسط في رحلة عاين فيها أهوالاً كبيراً ومخاطر جمة، عرجت خلالها سفينته على المدن الكبرى كالجزائر التي حل بها في ذي الحجة 1027هـ وقسنطينة وتونس وسوسة³.

وفي الجزائر العاصمة، خرج بصحبة الأعيان كالمفتي محمود بن قرمان والشاعر محمد بن راس العين، كما التقى بصديق دراسته الشيخ سعيد قدوره، ثم انتقل إلى تونس ومنها إلى سوسة، حيث كاتبه إمام جامع الزيتونة "تاج العارفين التونسي" طالباً الإجازة، فأجازه المقرئ بقصيدة بليغة قبل ركوبه البحر نحو الإسكندرية، واصفاً المخاطر التي واجهته من قراصنة مالطة بقوله: « .. مع ترقب هجوم

¹ المرجع نفسه ، ص 118

² المرجع نفسه الصفحة نفسها.

³ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

العدو في الروح والغدو لاسيما مالطة الملعونة، التي يتحقق من خلص من معرفتها أنه أمد بتأييد إلهي و معونة»¹.

وعند ملامسة شواطئ الإسكندرية في جمادى الأولى 1028هـ، فاضت مشاعره فرحاً وامتناناً لله فقال: «.. فرأينا البر وكأننا لم نره وشفيت به أعيننا من المر وحصل بعد شدة الفرح، وشمنا من السلامة أطيب الأرج، فيالها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب... فشفينا لرؤيتها من الأوجاع..»² وهنا يزيل كتاب "الرحلة" لبساً تاريخياً وقع فيه تلميذه الحنبلي؛ فبينما ذكر الأخير دخوله مصر في رجب، يثبت المقرئ وصوله للإسكندرية في جمادى الأولى، مما يوضح أن مصر في اصطلاحهم كانت تعني القاهرة، وأثناء مقامه بالإسكندرية، أتم تأليف كتابه "إتحاف المغرم المغربي"، ثم دخل القاهرة في رجب 1028هـ، وعنه قال الحنبلي: « ما دخل رجب افتتح البخاري فأتى بما هو أعجب وكان حافظاً أديباً»³.

عقب استقراره، أخذ المقرئ يكرر الزيارة من القاهرة إلى الحرمين والقدس ودمشق؛ فحج خمس مرات وزار المدينة سبعاً، واصفاً تعلقه بتلك البقاع بقوله الحرفي: «حصلت لي بالمجاورة فيها - مكة- المسرات وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة... ووفدت على طيبة المعظمة سبع مرات، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار، واستضأت بتلك الأنوار، وألفت بحضرته

¹ المرجع نفسه ، ص 119

² المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

بعض ما من الله به علي في ذلك الجوار، وأملت الحديث النبوي بمراى منه ﷺ ومسمع...»¹.

أما في دمشق، فقد كانت زيارته الأولى في شعبان 1037هـ، حيث ألقى دروساً في الجامع الأموي تحت قبة النسر، ووصف صاحب " خلاصة الأثر " هيئة مجلسه بقوله: «...ونزل عن الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده وكان ذلك نهار الأربعاء 17 رمضان سنة 1037هـ²»، وفي هذه الزيارة اقترح عليه تلميذه ابن شاهين تأليف " نفح الطيب "، ثم كانت زيارته الثانية لدمشق سنة 1040هـ التي ختم فيها صحيح البخاري، ليعود بعدها إلى مصر ويستقر بها في ربيع الأول 1041هـ حيث كتب رسالته للدلائي قائلاً: « ثم عدت في هذا الوقت إلى مصر »³.

• تجليات التأريخ والتخييل في رحلة المقرئ التلمساني:

يمكن تتبع تجليات التأريخ والتخييل في رحلة المقرئ من خلال البلدان التي مر بها نذكر منها:

1- مغادرة تلمسان إلى المشرق:

عندما شد أحمد المقرئ التلمساني رحاله مغادراً ديار المغرب والأندلس، وتحديدًا من تلمسان وفاس، متجها نحو المشرق سنة 1027هـ، أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، فإنه هنا يؤرخ لهذه اللحظة الفاصلة ويصور المدن التي تركها وكأنها أماكن جميلة وعزيزة على قلبه..، فقد عبر في بداية

¹ المرجع نفسه، ص 120

² المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها

رحلته عن حزنه لفراقها، وبين مكانتها في نفسه، فبدأت وكأنها حاضرة في ذاكرته ترافقه في طريقه إلى

المشرق ويتجلى هذا في قوله :

نفحات كافور ومسك	قطر كأن نسيمه
در هوى من نظم سلك ¹	وكان زهر رياضه

ويقول :

وصفا العود فيه والابداء	بلد طاب لي به الأنس حيناً
وروت منه تلك النوادي الأنداء	فسقت عهد العهاد
قط الرأس وقطع التمام	محل فتح الكمائم ومس

ثم يقول :

ودهري كله زمن الريع	به كان الشباب اللدن غضا
له شغف بتفريق الجميع ²	ففرق بيننا زمن خؤون

¹ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1408 هـ - 1988 م، ص 14

² أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1408 هـ - 1988 م، ص 1

في هذه الأبيات يتجلى التخيل من خلال الوصف والتشبيه، حيث شبه لنا الشاعر نسيم القطر، الذي يقصد به نسيم بلده، بنفحات الكافور والمسك للدلالة على طيب رائحته وجعله كأنه عطر يفوح في المكان، كما شبه نسيم الوطن بعطر الجنة ليعزز جماله ومكانته في نفسه، فتبدو أجواء المكان قريبة من الحس وكأن عبيرها ما يزال حاضرا، ويعبر هذا عن تجاوز التصوير لحدود الوصف نحو تشكيل صورة ذهنية تستحضر الإحساس بالرائحة وكأنها حاضرة بالفعل.

ثم شبه أزهار رياضه، والمقصود بها حدائقه وبساتينه الخضراء، بالدر أو اللؤلؤ، وهو رمز الجمال والنفاسة، فتصبح الزهور كأنها لآلئ لامعة، وهذا الدر المنثور في خياله يمثل استعادةً لتلك الأيام الجميلة التي تبعثرت بعد الرحيل، فتقترب صورة البساتين من الذهن وكأنها ماثلة أمام الناظر، وقوله «من نظم سلك» يعني أن هذه اللآلئ كأنها منظمة في خيط، وهنا يسترجع بنوع من الأسى تلك الأيام وكأنها كانت عقدا منتظما ثم تفرق، في إحساس يحمل أثر الذكرى ومرارة الفراق، وبذلك يتبلور المشهد في هيئة بناء تخيلي حي يعيد رسم المكان داخل وعي القارئ بعمق وحضور واضح.

كما يتجلى التخيل أيضا في وصفه للبلد الذي طاب له فيه الأنس وارتاح فيه، يقول: «طاب لي به الأنس حيناً»، وهذا يوحي بالسكينة والراحة في ذلك البلد، فتظهر صورة المكان مرتبطة بالطمأنينة والهدوء، و«وصفا العود فيه والابداء» والمراد بذلك أن هذا المكان طيب في عوده وهو الرجوع إليه، وطيب في ابتدائه أي في بدايته، مما يدل على أنه جميل في كل حالاته من البداية إلى العودة إليه، وكأن الشاعر ما يزال متعلقاً بتلك الديار.

ثم يتضح لنا مشهد الطبيعة وهي تتحرك بالمطر والحياة، فيقول «فسقت عهده العهاد»، وفي هذا إشارة إلى أن الأمطار نزلت وسقت الأرض، مما يوحي بالخير والحياة، فتبدو الطبيعة وكأنها تستعيد حركتها وهدوءها. وقوله «وروت منه تلك النوادي الأنداء» قاصداً بذلك أن النوادي وهي الأماكن أو الحدائق، امتلأت بالأنداء وهي قطرات الندى والمطر، فصارت خضراء ومليئة بالحياة، في مشهد يقرب للقارئ صورة الأرض بعد المطر، وهكذا يرسم الشاعر صورة طبيعية تجمع بين الجمال والسكينة، فتظل ملامح المكان حاضرة في الذهن، وتكتسب الصورة طابعاً حركياً يوحي بتجدد الأرض ونبضها، حتى يتخيل المشهد وكأنه يتنفس أمام العين.

ويستمر توالي الأحاسيس في البيت الثاني من المقطع الثاني، حيث صور لنا الشاعر المكان كأنه أرض مباركة، في قوله «محل فتح الكمائم ومسقط الرأس وقطع التمام»، وهو وصف للمكان بما يحمله من خير وحياة، والكمائم هي أغلفة الزهور قبل أن تتفتح وهي بداية ظهور الجمال، أما التمام فهي أشياء تعلق للحماية من الشر والحسد، وذكرها هنا يوحي بالأمان والطمأنينة في ذلك المكان، فتقترب صورة الموطن من النفس بما فيها من دفء وألفة.

ثم يتبدى لنا أنه يسترجع مرحلة جميلة من حياته، في قوله «به كان الشباب اللدن غضاً»، ويعني بهذا أن شبابه كان طرياً وجميلاً في بدايته، واللدن الغض يعني الشباب الناعم الطري الذي لم يتغير بعد، وهذا يوحي بالحيوية وجمال مرحلة الشباب، في إحساس يعيد إلى النفس صورة الأيام الهادئة التي مضت، وقوله «ودهري كله زمن الربيع» يدل على أن حياته كانت كلها فرحاً وجمالاً مثل فصل الربيع، وكأن تلك المرحلة ما تزال حية في ذاكرته، لكن بعد ذلك يظهر التحول، فيقول

«ففرق بيننا زمن خؤون»، ويقصد أن الأيام باعدت بينهم، و«له شغف بتفريق الجميع» أي أن الزمن يفرق بين الناس والأحباب، مما يعكس الحزن على تلك الأيام الجميلة التي مضت، فيبقى أثر الفراق ممتداً في الشعور، وفي هذا المستوى يتعمق البعد الوجداني، إذ يغدو الزمن قوة مؤثرة تفصل بين الأحبة وتثير في النفس إحساس الحنين والفقد.

ومما يلاحظ في الأبيات السابقة، أن أحمد المقرئ التلمساني كان يوثق في رحلته مشقة السفر والابتعاد عن الديار، حيث يصور طريق الرحلة وما فيه من تعب، وكيف تمضي القافلة في الصحراء مبتعدة عن موطنه، فتغدو الرحلة ثقيلة بسبب البعد عن الأهل والوطن، ويشد الإحساس بالوحدة مع طول الطريق وسرعة مرور الزمن في اتجاهه نحو المشرق فيقول :

سائقُ الظعنِ يومَ زَمِّ جماله	أيُّ ليلٍ على الحبِّ أطاله
المهمة عسفا سهوله ورماله	يزجر العيس طاويا يقطع
ما على الربعِ لو أجابَ سؤاله	يسألُ الربعَ عن ظباء المصلى
غيرَ أنَّ الوقوفَ فيه علاله	ومحالٌ من المحيلِ جوابٌ
في مغانيكٍ ساحباً أذباله	وتمشَّى النسيمُ وهو عليلٌ
والتداني غصونه ميّاله ¹	حيثُ وجهُ الزمانِ طلقَ نضير

¹ المصدر نفسه ، ص 21

وبقوله :

لأصبح البحرُ من أنفاسكم ييساً والبرُّ من أدمعي ينشَقُّ بالسفن¹

ويتجلى في هذه الأبيات مشهد تأريخي يحمل تفاصيل الرحلة ومعاناتها، ويصور لنا أثر الغربة في نفسه فيقول: «أي ليل على المحب أطاله» يجعل الراحل الليل ممتدا وثقيلًا بسبب السفر، فلا يبدو الليل زمنا عاديا، بل يتحول إلى إحساس بالمشقة وطول الانتظار، فتغدو ساعات الرحلة بطيئة مثقلة بالحنين والبعد عن الديار ، وقوله: «سائق الظعن يوم زم جماله» يقصد به قائد القافلة الذي يسوق الإبل ويشدها للرحيل، فتتشكل بداية الرحلة في صورة حية توثق لحظة الارتحال وما يصاحبها من استعداد وتعب، وكأن القافلة تدخل منذ البداية في طريق طويل من المشقة والمعاناة.

ويصور المقرئ القافلة وهي تشق الصحراء في قوله: «يزجر العيس طاويا يقطع المهمة عسفا سهوله ورماله»، أي يدفع الإبل بعنف وسرعة لتقطع السهول والرمال دون راحة، فتظهر قسوة الطريق وثقل المسافات، وتتحوّل الصحراء إلى فضاء شاسع يضاعف الإحساس بالتعب والوحدة، وهنا يتجاوز التصوير حدود الوصف ليبنى مشهدا حيا يستحضر قسوة السفر ومشقة الارتحال عبر الصحراء، فتبدو حركة القافلة وكأنها ماثلة أمام الناظر.

وفي سياق آخر يصوّر الرحالة المكان كأنه صامت لا يجيب رغم كثرة النداء، في قوله: «يسأل الربع عن ظباء المصلّى ما على الربع لو أجاب سؤاله»، ثم يقول: «ومحال من المحيل

1 المصدر نفسه ، صفحة نفسها

جواب غير أن الوقوف فيه علاقه»، أي أن المكان لا يجيب ولا يرد، وكأن الوقوف فيه وحده صار عزاء للمسافر ووسيلة للتخفيف من وحشة الفراق، وفي هذا المشهد يوثق المقرئ حالة نفسية يختلط فيها الحنين بالصمت والفراغ، فتعكس مشاعره على صورة الأطلال والمواضع التي مر بها، ويجعل من الطبيعة إنسانا، في قوله: «وتمشي النسيم وهو عليل في مغانيك ساحبا أذياله»، حيث يشخص النسيم في صورة إنسان مريض يسير ببطء ويجر أذياله في تعب، فتكتسب الطبيعة إحساسا إنسانيا يشارك الراحل حزنه وحنينه، ويمنح هذا التشخيص للموقف بعدا وجدانيا، إذ تبدو الطبيعة وكأنها تشاركه أثر الغربة والفراق.

ثم يرسم المقرئ صورة أخرى في قوله: «حيث وجه الزمان طلق نضير والتداني غصونه مباله»، فيجعل الزمان كأنه إنسان ذو وجه مشرق جميل، كما تبدو الغصون مائلة متحركة في انسجام وهدهوء، فتتشكل صورة طبيعية تجمع بين الصفاء والراحة، وكأن المكان ما يزال محتفظا بجماله وحيويته رغم البعد عنه، مما يجعل الذكرى حاضرة في النفس بصورة حية ومتجددة، ويبلغ التخيل أقصى درجاته في قوله: «لأصبح البحر من أنفاسكم يبسا والبر من أدمعي ينشق بالسفن»، حيث يبالغ الرحالة في تصوير أثر الشوق والحنين، فيجعل الأنفاس قادرة على تخفيف البحر، والدموع قادرة على شق البر حتى تسير فيه السفن، وهنا لا يقصد المعنى الحقيقي، بل يسعى إلى تضخيم الإحساس بالفراق وتحويله إلى صورة شعرية تتجاوز الواقع، فتغدو المشاعر قوة مؤثرة تعيد تشكيل عناصر الطبيعة نفسها، وفي ذلك تعبير عن شدة اللوعة وعمق التعلق بالأحبة والديار.

2- ركوب البحر وبلوغ مصر:

يوصل المقرئ مغامرته البحرية بمغادرة اليابسة متجهاً نحو البحر المتوسط في طريقه إلى المشرق استعداداً لمواجهة أهوال البحر وما يحمله من صعوبات ومخاطر. وهنا يوثق الراحل لحظة انتقال حاسمة من الاستقرار إلى عالم المجهول، حيث يجد نفسه وسط أمواج متلاطمة، وقد سيطر عليه الخوف والرغبة أمام قوة البحر وعظمته، وشعوره بالضعف أمام هذا المشهد المهيّب قبل الوصول إلى شواطئ الأمان في مصر فيقول: « إلى أن ركبنا البحر، وشاهدنا من أهواله مما لا يعبر عنه وما لا يبلغ له كنه: البحر صعب المرام جداً لا جعلت حاجتي إليه أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر، وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر قد أزعجتنا أكف الريح من وكرها كما نبهت اللجج من سكرها والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب¹، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب وتراءت جيوش الأمواج التي أمدت منها الأفواج بالأفواج ونحن قعود كدود على عود ما بين فرادى وأزواج، وتوهمنا أنه ليس في الوجود إلا السماء والماء وذلك السفين، ومن في قبر جوفه دفين²».

في هذه الأبيات يتجلى التخيل في بناء مشهد بحري شديد الاضطراب، حيث يصور الراحل البحر كقوة طاغية تتجاوز حدود الوصف العادي، في قوله: «البحر صعب المرام جداً» لتأكيد استحالة مواجهته بسهولة، ثم يضيف دعاءه «لا جعلت حاجتي إليه» في تعبير صريح عن النفور والخوف من ركوبه، بما يعكس حالة الرهبة النفسية التي يعيشها، وفي قوله: «أليس ماء ونحن طين» تتشكل مقارنة دلالية بين ضعف الإنسان وأصل خلقه من الطين وبين قوة الماء وهيجان البحر، في

المصدر نفسه ، ص 33¹

² المصدر نفسه ، ص 34

إحساس يوحى بعجز الإنسان أمام الطبيعة ، وهنا يتجاوز التصوير حدود الوصف لِيُنشئ صورة ذهنية تستحضر إحساس الخطر، حيث تتحول الأمواج إلى كائنات غاضبة، في قوله: «استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر»، إذ تبدو الأمواج وكأنها وجوه عبوسة مهاجمة، فتغدو الطبيعة كياناً حياً يواجه الإنسان بعداء واضح.

ثم تبرز صورة أخرى في قوله: «وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر»، حيث تتحول عناصر المشهد إلى طيور جارحة تهاجم السفينة، مما يضيف على البحر طابعاً عدوانياً يضاعف الإحساس بالتهديد ، ويُبرز الراحل اضطراب البحر في قوله إن الرياح أزعجت اللجج من سُكرها، حيث يوضح معنى اللجج: أعماق البحر وأمواجه المتلاطمة، وكأنها كانت ساكنة ثم أُثِرت فجأة، بما يشي بتفكك الهدوء وتحول الطبيعة إلى حالة من الفوضى ، ويبلغ المشهد بعداً حركياً حين يُصوّر الموج كأنه يتفاعل مع الرياح ويضطرب على إيقاعها، فتتشكل صورة بحرية نابضة بالحركة والصراع. وفي قوله: «كأنه من كأس الجنون يشرب» يبلغ التخيل أقصى درجاته، حيث يتحول البحر إلى كيان فاقد للاتزان كمن أصابه الجنون، فتغدو الصورة شديدة التأثير في إبراز الفزع والدهشة؟

ثم تتشكل صورة جيوش الأمواج في قوله: «وتراءت جيوش الأمواج التي أمدت منها الأفواج بالأفواج»، حيث تتكاثر الأمواج بصورة لا نهائية كأنها جيوش متعاقبة، مما يعمّق الإحساس بالرهبة والضغط النفسي ، كما يصور المقرئ حالة الركاب في قوله: «ونحن قعود كدود على عود ما بين فرادى وأزواج»، حيث يبدو المسافرون في غاية الضعف والانكسار، وكأنهم كائنات صغيرة عاجزة أمام هذا الهول، في دلالة على فقدان السيطرة والاستسلام لسطوة البحر، وفي قوله:

«وتوهنا أنه ليس في الوجود إلا السماء والماء وذلك السفين»، يتقلص العالم في وعيهم إلى فضاء محدود بين السماء والبحر فقط، في إحساس بالعزلة الكاملة والانفصال عن الواقع.

ويختتم هذا المشهد بقوله: «ومن في قبر جوفه دفين»، حيث تتحول السفينة إلى صورة قبر مغلق، بما يجعل الرحلة البحرية تجربة قريبة من الموت، في تعبير يحتل أقصى درجات الخوف والاختناق داخل هذا الفضاء المائي المهيب .

تحدد ملامح هذه المرحلة عند وصول أحمد المقرئ التلمساني إلى مصر سنة 1027 بعد قطع مسافات طويلة وطرق شاقة، حيث تُبرز هذه اللحظة وتوثق انتقاله من تعب السفر إلى بداية الاستقرار والسكينة بعد عناء الطريق ، ويصف الراحل دخوله مصر بوصفها محطة فاصلة في مساره، إذ تبدو له كأنها دواء أزال آثار الغربة وأعاد إليه الطمأنينة، في إحساس يجعل المكان يرتبط بالراحة بعد المشقة، وكأن ما مرّ به من تعب قد انتهى بمجرد الوصول إلى هذا الفضاء الجديد فيقول : «ثم وصلنا بعد خوض بحار يدهش فيها الفكر ويحار، وجوب فياف مجاهل إلى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع شاطئ مصر جنة ما مثلها في بلد لا سيما من زخرفت بنيلها المطرد¹» .

ثم يقول :

¹ المصدر نفسه ، ص 35

والله مجرى النيل منه إذا الصبا
أرتنا به من مرها عسكراً مجراً
بشط يهز المهرية ذبلاً
وموج يهز البيض هندية بتراً
إذا مد حاكي الورد لونا، وإن صفا
حكي ماءه لونا ولم يحكيه مرا¹

في هذا السياق يُبرز أحمد المقرئ صعوبة الطريق قبل الوصول، حيث تشير عبارة «خوض بحار يدهش فيها الفكر ويحار» إلى المرور بتجارب شاقة تنير الحيرة والدهشة لشدة أهوالها، كما تدل عبارة «جوب فياف مجاهل» على قطع مساحات واسعة مجهولة وصعبة، مما يجعل لحظة الوصول إلى مصر لحظة تحوّل بعد معاناة طويلة ، وعند قوله «فشفينا برؤيتها من الأوجاع» يتجلى أثر رؤية المكان في إنهاء تعب الغربة، وكأن النظر إلى مصر أعاد التوازن للنفس بعد إرهاق السفر، ثم يصفها بأنها «جنة ما مثلها في بلد» بما يحمله هذا التعبير من دلالة على جمال استثنائي يميزها عن باقي البلاد، خاصة مع ما يميزها من نيلها المطرد، أي الماء الجاري المتتابع الذي يوحي بالحياة المستمرة والحركة الدائمة.

ويواصل الراحل رسم هذا المشهد الطبيعي في قوله: «والله مجرى النيل منه إذا الصبا» حيث يظهر النيل في حركة هادئة تتأثر بنسيم الصبا، فتبدو المياه في حالة من التماوج الخفيف الذي يضيف على المشهد حياة واتزاناً، كما يوحي بتفاعل الطبيعة مع عناصرها في انسجام هادئ ثم يقول : «أرتنا به من مرها عسكراً مجراً» في هذا الموضع تتشكل صورة متحركة لسطح النيل، حيث تبدو حركة

¹ المصدر نفسه ، ص 37

الرياح فوق الماء وكأنها تصنع صفوفاً متتابعة تشبه جيشاً متحركاً، نتيجة تتابع الأمواج الصغيرة وكثرتها كما يُشبه الموح بالسيوف الالامعة في حركته ولمعانه، بينما يُقارب الشجر أو القصب على الشاطئ بالرماح المهتزة في قوله : «بشط يهز المهريّة ذبلاً وموح يهز البيض هندية بتراً» ، فيندمج المشهد الطبيعي في صورة تجمع بين الحركة والقوة، مما يمنحه طابعاً حيّاً متغيراً ، ثم يقول: «إذا مد حاكي الورد لونا، وإن صفا حكي ماءه لونا ولم يحكيه مرا» في هذا السياق يبرز تغير لون النيل تبعاً لحالاته، فعند الفيضان يميل لونه إلى الحمرة بسبب الطمي فيشبه الورد، بينما عند الصفاء يعود إلى لونه الطبيعي الصافي، مما يعكس تنوع حالاته مع بقاء جماله ثابتاً، ويكشف هذا التحول عن طبيعة النيل المتجددة التي تجمع بين التغير في المظهر والاستمرار في الجمال والعذوبة.

3- زيارة مكة المكرمة :

تنطلق رحلة المقرئ من مصر متجهاً نحو الحجاز عبر البحر، قاصداً أداء فريضة الحج. ويصف لنا عزمه الشديد وهو يخوض هذا المسار البحري في لحظة انتقال تُؤرخ لمرحلة جديدة من رحلته، حيث يتجه نحو البقاع المقدسة عبر ميناء جدة، حاملاً شوقاً روحياً عميقاً إلى مكة المكرمة، التي يراها غاية تطهير وشفاء للنفس والعين فيقول :

فحين حصل القرب، واكتحلت العين بإثم تلك الترب ، وأقصد

على عزمة ارض الحجاز تجد بعدا عن السخط في نزل الأوداء فقلت :

يا مكة الله قد مكنت لي حرماً مؤمناً لست أشكو من داء¹

يصف المقرئ في هذه الأبيات لحظة الاقتراب من أرض الحجاز، حيث يجعل من رؤية الأرض المقدسة لحظة مبهجة تمسّ الإحساس الداخلي، إذ يشبه ترابها بالكحل (الإثمد) الذي يزين العين ويعيد إليها صفاءها، في دلالة على أن المكان يمنح الراحة والشفاء وكأنه يطهر البصر والبصيرة، «واقصد على عزمة أرض الحجاز تجد بعداً عن السخط في نزل الأوداء» في هذا البيت يرسم معنى القصد الصادق نحو الحجاز، حيث يظهر أن التوجه إليها يبعد النفس عن الضيق والسخط، وكأن الرحلة نحوها ليست مجرد سفر بل انتقال من التعب إلى الطمأنينة والسكينة الداخلية. «يا مكة الله - قد مكنت لي حرماً مؤمناً لست أشكو من داء» هنا يتجسد الخطاب الروحي لمكة، حيث تتحول إلى فضاء مقدس يحتضن الراحل، فيشعر عند دخولها بزوال كل ألم، وكأن وجوده في الحرم يغنيه عن الشكوى من أي داء، في إحساس قوي بالراحة والشفاء الروحي والجسدي.

ثم يصل المقرئ إلى مكة المكرمة في لحظة روحانية مؤثرة، ويؤرخ هنا لمرحلة جديدة من رحلته تتمثل في بلوغ البيت الحرام وأداء مناسك العمرة في أوائل ذي القعدة سنة 1028هـ، ثم الانتقال إلى مشاعر الحج بين عرفات ومنى. ويصور لنا لحظة وقوع بصره على الكعبة وما أحدثته فيه من ذهول وهيبة، حتى كاد يفقد إحساسه بما حوله من شدة التأثر، ليجعل من مكة موضع سكون وخلص من تعب السفر وهموم النفس ويتجلى ذلك في قوله:

¹ المصدر نفسه ، ص 39

ولما وقع بصري على البيت الشريف كدتُ أغيب عن الوجود :

هذه دارُهُمْ وَأَنْتَ مُحِبُّ	ما احتباس الدموع في الأماق
والمغاني للصبِّ فيها معاني	فهي تدعى مصارعَ العشاق
حل عقد الدموعِ واحلل رباهـا	واهجر الصبر وارعل حتى الفراق ¹

ويقول :

هذه أباطُحُ مكة حولي وما	جمعت مشاعرها من الحرمات
ادعو بها لييك تلبية امرئ	يرجو الخلاص بها من الازمات ²

ثم يقول:

على ربعمهم لله بيت مبارك	اليه قلوب الناس تهوي وتهواه
يطوفُ به الجاني فيغفرُ ذنبه	ويسقطُ عنه جرمه وخطاياهُ
وكم لذة او فرحة لطوافه	فلله ما أحلى الطواف وأهنأه ³

¹ المصدر نفسه ، ص 41

² المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

³ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

وهنا يوثق الراحل لحظة المشاهدة الأولى للبيت الحرام فيقول: « ولما وقع بصري على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود » ، حيث تبدو رهبة المكان شديدة حتى يشعر الإنسان وكأنه منفصل عما حوله، وفي هذا التصوير تظهر عظمة الكعبة وقدرتها على التأثير في النفس، فيتحول المشهد إلى حالة يغلب عليها الدهول والانبهار.

ثم يقول: «هذه دارهم وأنت محب ما احتباس الدموع في الأماق» وفي هذا القول تتشكل صورة العاشق الذي يحاول منع دموعه فلا يستطيع، حيث تبدو الدموع وكأنها شيء محبوس داخل العين يريد الخروج، مما يكشف قوة التأثير وهيبة اللقاء بعد طول شوق وانتظار ويقول: «والمغاني للصب فيها معاني، فهي تدعى مصارع العشاق» وهنا يجعل مكة مكانا تذوب فيه القلوب من شدة التعلق والمحبة، وكأن العاشق يفقد توازنه أمام قداسة البيت الحرام ، ويبحث هذا المشهد في الذهن صورة الحجاج وقد غلب عليهم الشوق والخشوع حتى صار المكان مؤثرا في الأرواح قبل الأبصار.

وفي قوله: «حل عقد الدموع واحلل رباه، واهجر الصبر وارعل حتى الفراق» يصور الدموع وكأنها عقدة مربوطة تحتاج إلى فك حتى تنساب بحرية، بما يعكس رغبة الراحل في التخلص من آثار التعب والمعاناة التي رافقته طوال الطريق، كما يجعل البكاء وسيلة للتخفيف عما يحمله داخله من شوق وتأثر، فيقول : « هذي أباطح مكة حولي وما جمعت مشاعرها من الحرمات »وهنا يرسم المقرئ صورة حسية لمكة بما تحمله من قداسة، حيث تبدو المشاعر المقدسة وكأنها تحيط به من كل جانب، فيشعر بعظمة المكان وهيئته، ويجعل هذا الوصف القارئ يعيش أجواء الحج وكأنه يشاهد

تلك المواضع المباركة أمامه، ثم يقول: « ادعو بها لبيك تلبية امرئ يرجو الخلاص بها من الأزمات » وفي هذا القول يجعل التلبية طريقا للنجاة من الهموم و الشدائد، حيث تتحول كلمات الحج إلى مصدر يمنح النفس أملا وطمأنينة. ويظهر هنا أثر المكان في تغيير حالة الراحل من التعب والقلق إلى الراحة والسكينة.

وفي قوله: «على ربعم لله بيت مبارك اليه قلوب الناس تهوي وتهواه» يشبه انجذاب القلوب إلى مكة بشيء يندفع بقوة نحو مقصد لا يستطيع مقاومته، مما يبرز مكانة البيت الحرام في نفوس المسلمين ، ويجعل هذا التصوير القلوب وكأنها تتحرك وحدها شوقا إلى هذا الموضع المقدس، ثم يقول: «يطوف به الجاني فيغفر ذنبه ويسقط عنه جرمه وخطايا» وهنا تتضح صورة الطواف باعتباره لحظة تطهير، حيث تبدو الذنوب كأنها أحمال ثقيلة تسقط عن الإنسان بمجرد الطواف بالكعبة ، ويحمل هذا المشهد معنى التحرر من أثقال الماضي والشعور براحة داخلية عميقة.

وقد يبلغ التأثير النفسي ذروته في قوله: «وكم لذة أو فرحة لطوافه فله ما أحلى الطواف وأهناه » حيث يشبه الطواف بشيء حلو المذاق يبعث الراحة في النفس، وكأن الراحل يتذوق فرحة الوصول بعد طول المعاناة ، ويعكس هذا التصوير حالة السعادة والطمأنينة التي جعلت مشقة الرحلة تتلاشى أمام قداسة المكان ولذة الطواف.

تنتقل الرحلة في هذه المحطة نحو المدينة المنورة بعدما أتم المقرئ مناسكه في مكة المكرمة، وهنا يؤرخ الراحل لمرحلة جديدة من مساره الروحي تقوم على الانتقال من أداء الحج إلى التوجه نحو طيبة الشريفة شوقاً إلى زيارة المسجد النبوي ورؤية الحجرة الشريفة. ويصور لنا المقرئ هذا المسار بما يحمله من تعلق روحي وهيام داخلي، حتى تبدو المدينة المنورة غاية الرحلة وموضع السكينة بعد طول السفر فيقول :

ثم قصدنا طيبة الشريفة التي لها الفضل على الأقطار:

من يهده الرحمن خير هداية	يحل بمكة كي يتاح المقصدا
واذا قضى من حجه الفرض انثى	يشفي برؤية طيبة داء الصدى ¹

وبقوله :

قلبي والله مستطار منذ	حل في بيته الحرام
ذابت قلوب المطي عشقاً	وركبها واستوى المراد
الى حبيب القلوب حقا	الخي والميت والجماد
ولست من سكرتي مفيق	حتى أرى حجرة الرسول
فإن يسهل الي الطريقاً	فذلك أقصى مني وسول ²

¹ المصدر نفسه ، ص 42

المصدر نفسه ، الصفحة نفسها²

يستهل المقرئ قوله بالتعبير عن غاية سفره بقوله : « واذا قضى من حجه الفرض انشئ يشفي برؤية طيبة داء الصدى » حيث يشبه المقرئ الشوق إلى المدينة بالعطش الشديد أو المرض الذي لا يزول إلا برؤية طيبة، مما يجعل اللقاء بها أشبه بالشفاء الذي تستريح به النفس بعد معاناة الطريق، ويحمل هذا التصوير أثرا نفسيا واضحا، إذ تبدو المدينة المنورة وكأنها الموضع القادر على إزالة التعب الداخلي وإعادة الطمأنينة إلى القلب.

ثم تتشكل صورة القلب وكأنه طائر انفلت من مكانه ولم يعد مستقرا داخل صاحبه، في تعبیر يكشف شدة الشوق والاضطراب الذي يعيشه الراحل، فيقول: « قلبي والله مستطار منذ حل في بيته الحرام »، وقد يجعل هذا المشهد القارئ يشعر بحالة التعلق القوي التي دفعت المقرئ إلى فقدان سكنته انتظارا للوصول إلى المدينة المنورة ثم يقول: « ذابت قلوب المطي عشقا وركبها واستوى المراد » وفي هذا المقطع يبلغ التصوير درجة مؤثرة، حيث يجعل حتى المطي وهي الإبل التي تحمله تشارك صاحبها الشوق والهيام، فكأن الرحلة كلها تسير بروح واحدة نحو المدينة، وتبعث هذه الصورة مشهدا تتحول فيه الدواب والركب إلى كائنات يملؤها الحنين، مما يزيد من قوة التأثير ويعمق الإحساس بوحدة الشوق في الطريق .

ثم يقول: « إلى حبيب القلوب حقا الحي والميت والجماد » وهنا يتسع التصوير ليشمل الوجود كله، حيث يجعل الحي والميت وحتى الجماد مشدودا بالمحبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فتبدو المدينة مركزا يجتمع حوله حب الكائنات جميعا، ويمنح هذا المشهد بعدا روحيا يبرز عظمة المكان ومكانته في النفوس، فيقول: « ولست من سكرتي مفيقا حتى أرى حجرة الرسول » وفي هذا

القول يشبه شدة الشوق بحالة السكر التي تغيب معها الراحة والهدوء، فلا يعود إلى طمأنينته إلا برؤية الحجرة النبوية ، ويبرز هذا التصوير مقدار الهيام الذي استولى على المقرئ، حتى أصبحت رؤية المسجد النبوي غاية ينتظرها بفارغ الصبر.

ويختم بقوله: «فإن يسهل الي الطريقاً فذلك أقصى مني وسول» وهنا يجعل الوصول إلى المدينة المنورة أعظم أمنية يرجو تحقيقها، فكأن الطريق إليها هو السبيل الذي تنتهي عنده مشقة الرحلة وآلامها ، ويعكس هذا المشهد حالة الأمل والترقب التي صاحبت الراحل، حتى غدت المدينة في نظره موضع الراحة الكبرى ونهاية الشوق الطويل.

5- زيارة بيت المقدس :

يصل المقرئ في هذه المحطة إلى بيت المقدس، حيث يربط بين زيارته وذكرى معجزة الإسراء والمعراج سنة 1029 فيؤرخ لمرحلة ذات بعد روحي خاص تتجاوز حدود الرحلة العادية إلى حدث ديني عظيم يرفع من مكانة هذا الموضع في الوعي الإسلامي ويجعله مرتبطاً بالمعجزات الكبرى في السيرة ، ويصور لنا القدس باعتباره فضاءً جامعاً للأنبياء خلف النبي ﷺ، في مشهد يمنح المكان دلالة رمزية وروحية مرتبطة بالحدث المقدس بقوله: قصدت زيارة بيت المقدس في شهر ربيع هذا العام وقد شملتني بفضل الله جوائز الإنعام:

أو كمسك قد قض عنه ختام

مثل زهر قد شق عنه كمام

أرض من كل نابت أقلام

ولو أن البحار حبر وما في ال

فطويل المديح فيه قصير	وحسام ماض لديه كهام
فمن المعجزات ان سار ليلا	وجميع الأنام في نيام
راكبا للبراق حتى أتى القد	س وفيه رسل الإله الكرام
فاستووا خلقه صفوفاً وقالوا:	صل يا أحمد فأنت الإمام ¹

تتجلى في هذه الأبيات مشاعر من البهجة الروحية والمدح النبوي الخالص؛ حيث يستهل المقرئ كلامه بوصف جميل لأثر نعم الله وزيارة النبي ﷺ في قوله : «مثل زهر قد شق عنه كمام، أو كمسك قد قض عنه ختام وفي هذا القول يشبه أثر الزيارة بانفتاح الزهر وخروج عبيره، والكمام هو غلاف الزهرة، أي أن الزهرة حين تتفتح يظهر جمالها، كما يشبهه بانطلاق رائحة المسك بعد فتح وعائه والختام هو الغطاء الذي يُغلق به، في صورة حسية توحى بانكشاف الخير وتدفق البركة تدريجياً.

وفي قوله : «ولو أن البحار حبر وما في الأرض من كل نابت أقلام » تتسع الصورة لتجعل البحار حبرا والنبات أقلاما، في دلالة على عجز اللغة عن الإحاطة بعظمة المقام، وكأن الكون كله لو تحول إلى أدوات كتابة لما استطاع وصف هذا الحدث أو الإحاطة بجلاله، ثم يقول: « وحسام ماض لديه كهام» وفي هذا القول يشبه الكلام بالسيف الحاد (الحسام) الذي يفقد حده

¹ المصدر نفسه ، ص 56

وقوته ويصبح كهاماً أي غير قاطع، في إشارة إلى عجز اللغة أمام عظمة المشهد وضعف التعبير عن هيئته.

ثم يؤرخ الراحل لحدث الإسراء والناس جميعاً نيام، في قوله: «فمن المعجزات أن سار ليلاً وجميع الأنام في نيام»، حيث يبرز وقوع الرحلة ليلاً بينما البشر في نوم عميق، مما يجعل الحدث خارقاً للعادة ومتميزاً عن مجرى الزمن الطبيعي، وفي قوله: «راكباً للبراق حتى أتى القدس وفيه رسل الإله الكرام يشير إلى البراق وهو دابة سريعة خارقة، جعلت المسافة تطوى في لحظة حتى الوصول إلى القدس، حيث اجتمع رسل الإله الكرام أي الأنبياء في مشهد يجمع بين المعجزة والمكان المقدس.

وفي قوله: « فاستووا خلقه صفوفاً » وقالوا: «صل يا أحمد فأنت الإمام» تصور في هذا البيت كلمة استووا أي اصطفوا بانتظام، حيث يقف الأنبياء صفوفاً خلف النبي ﷺ في مشهد يبرز مكانته، ويجعل الصورة حية كأنها تحدث أمام العين، في تجسيد رمزي لعظمة هذا المقام الشريف.

➤ من الرحلات التي وثقها وأرخها الرحالة :

1- زيارته إلى مدرسة أولاد الإمام بتلمسان :

تندرج هذه الرحلة ضمن تنقلات المقرئ العلمية بالمغرب الإسلامي، حيث وقف خلالها على معالم علمية بارزة بتلمسان، وقد أرخ المقرئ في الزيارة التي قام بها إلى مدرسة أولاد الإمام بمدينة تلمسان في حدود سنة 1010هـ، وذلك برفقة الفقيه سيدي علي بن محمد بن علي أجهلول وعدد من العلماء والأعيان، حيث قال: «ذهب معنا في جملة من العلماء والأعيان... إلى المدرسة

الشهيرة الصيت بالمغرب المعروفة بمدرسة أولاد الإمام¹، وتعد هذه المدرسة من أشهر المدارس العلمية بالمغرب الإسلامي، وهو ما يظهر من وصفه لها بالشهيرة الصيت. ويذكر المقرئ أنهم طافوا بأرجاء المدرسة وشاهدوا آثارها الباقية، ثم وصلوا إلى خزانة الكتب، فوجدوا حالها متدهوراً بعدما كانت مركزاً للعلم والمعرفة، حيث وصفها بقوله: «فألفيناها بياباً خاوية على عروشها وقد ملئت بالزبل²»، ويكشف هذا النص عن صورة تاريخية لحالة بعض المؤسسات العلمية في تلك الفترة، كما يوثق جانباً من تراجع العناية بالخزائن والكتب رغم بقاء شهرة المدرسة ومكانتها العلمية.

2- زيارة المقرئ إلى الجزائر العاصمة:

تمثل زيارة المقرئ إلى مدينة الجزائر المحروسة إحدى محطاته العلمية التي عايش فيها مجالس العلماء والأعيان، وقد أرخ المقرئ لرحلته إلى مدينة الجزائر المحروسة في أواخر سنة 1027هـ، حيث اجتمع بعدد من العلماء والأعيان ومفتي الحنفية الشيخ محمود بن قرمان، فقال: «خرجنا يوم الخميس 25 ذي الحجة سنة 1027 صحبة جماعة من الأعيان³»، ويحدد النص الزمان والمكان بدقة، إذ يذكر خروجهم إلى موضع «رأس تافورة» بمدينة الجزائر. ويظهر من خلال النص أن هذه الرحلة لم تكن مجرد انتقال عابر، بل تحولت إلى مجلس أدبي جمع عدداً من أهل العلم والأدب، حيث طلب الأديب ابن رأس العين من المقرئ نظم أبيات شعرية تصف المكان، فاستجاب لذلك في المجلس نفسه، كما يعكس النص صورة عن طبيعة المجالس العلمية والأدبية بمدينة الجزائر خلال القرن الحادي عشر

¹ أبو العباس أحمد المقرئ، رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر (الجزائر: مكتبة الرشاد، 2004)، ص 140

² المصدر نفسه، صفحة نفسها

³ المصدر نفسه ص 72

الهجري، وما كان يسودها من تواصل بين العلماء وتبادل للشعر والأدب، إضافة إلى إبراز مكانة علماء المدينة وأعيانها في تلك الفترة.

3_ لحظة وداع المقرئ لمجالس العلم في مصر :

تمثل لحظة وداع المقرئ لمجالس العلم في مصر مرحلة ختامية في مساره العلمي قبل توجهه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وقد وثق المقرئ في هذا النص ختام مقامه العلمي بمصر المحروسة سنة 1029هـ، حيث قال: «قد نعمنا دهرا بسرد البخاري¹»، ويشير هذا القول إلى ملازمته الطويلة لمجالس قراءة صحيح البخاري، وهو ما يعكس استمرار حلقات الحديث والشرح في القاهرة خلال تلك المرحلة. كما يكشف النص عن مكانة حلقات العلم في هذه البيئة، باعتبارها مجالس تجمع بين التعليم والتلقي حول كتب الحديث، وما يرافق ذلك من تواصل علمي دائم بين العلماء وطلبة العلم، ويواصل المقرئ حديثه مثنيا على علماء مصر بقوله: «فلمصر أجل افتخار.. ونجوم زانوا سماء المعالي»²، في إشارة إلى تقديره لأهل العلم الذين صاحبهم خلال مقامه هناك، مما يعكس صورة عن الحياة العلمية بالقاهرة في القرن الحادي عشر الهجري، قبل انتقاله إلى رحلته نحو الحجاز.

وخلاصة هذا المبحث أن رحلة المقرئ التلمساني جمعت بين التأريخ والتخييل، فهي لم تقتصر على تسجيل الأحداث والأماكن فقط، بل مزجت بين التوثيق والوصف الأدبي، ومن خلال دراسة محطات الرحلة يتبين أن المقرئ كان ينقل ما شاهده ويضيف إليه أسلوبا يجعل النص أكثر حيوية.

المصدر نفسه، ص 70¹

² المصدر نفسه الصفحة نفسها

خاتمة

وفي ختام هذه الدراسة التي تناولنا فيها تجليات التأريخ والتخييل في رحلة المقرئ التلمساني إلى المغرب والمشرق، يمكن القول إن أدب الرحلة من الفنون الأدبية المهمة التي لا تقتصر على تسجيل السفر والتنقل فقط، بل تتجاوز ذلك إلى نقل التجربة الإنسانية كاملة، بما فيها من مشاهدات وأحداث وأحاسيس وانطباعات. فالرحلة تجمع بين الواقع والذات، وبين التاريخ والأدب، وبين الخبر والوصف، ولذلك فهي تعد مصدرا مهما لمعرفة أحوال البلدان والشعوب والعلماء والمجالس العلمية.

وقد حاولنا في هذه الدراسة أن نوضح أولا المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها البحث، وهي الرحلة والتخييل والتأريخ، فتبين لنا أن الرحلة في معناها اللغوي والاصطلاحي تقوم على الحركة والانتقال من مكان إلى آخر من أجل تحقيق غاية معينة، سواء كانت دينية أو علمية أو ثقافية أو غير ذلك وأن التخييل هو قدرة النص على إعادة تشكيل الواقع في صور فنية مؤثرة، أما التأريخ فهو تسجيل الوقائع وربطها بأزميتها وأمكنيتها وشخصياتها.

كما وقفنا في الفصل الأول عند أدب الرحلة في الجزائر، فتبين لنا أن هذا الفن له جذور عميقة في التراث العربي الإسلامي، وأن الجزائريين شاركوا فيه من خلال رحلات كثيرة، خاصة الرحلات الحجازية والعلمية، وذلك بسبب رغبتهم في طلب العلم وزيارة الأماكن المقدسة والاتصال بالمراكز الثقافية الكبرى، وقد ساهم الرحالة الجزائريون في تدوين أخبار مهمة عن البلدان والناس والعلماء، مما جعل رحلاتهم وثائق أدبية وتاريخية ذات قيمة كبيرة.

أما في الفصل الثاني، فقد تناولنا رحلة المقرئ التلمساني أنموذجا، واتضح لنا من خلال الدراسة أن المقرئ لم يكن مجرد رحالة يسجل ما يشاهده فقط، بل كان أدبيا ومؤرخا في الوقت نفسه، فقد وثق كثيرا من الأحداث والأماكن التي مر بها، مثل تلمسان، وفاس، ومراكش، ومصر، ومكة،

والمدينة، وبيت المقدس، كما ذكر المجالس العلمية والعلماء الذين التقى بهم، وهذا ما يمثل جانب التأريخ في رحلته.

ومن جهة أخرى، وجدنا أن المقرئ اعتمد كثيرا على التخيل في وصف مشاهد الرحلة، فهو حين يصف الوطن يستعمل لغة مليئة بالحنين، وحين يصف البحر يجعله كأنه كائن غاضب، وحين يصف مصر والنيل يرسم صورة جميلة للمكان، أما عند حديثه عن مكة والمدينة وبيت المقدس فإن لغته تصبح أكثر روحانية وتأثرا، وهذا يدل على أن الرحلة عنده لم تكن خروجاً عن الحقيقة، بل كانت وسيلة لتقريب الصورة إلى القارئ والتعبير عن عمق التجربة بصورة تخيلية.

ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها :

- رحلة المقرئ تجمع بين التأريخ والتخيل بشكل واضح، فالتأريخ يمنحها الصدق والقيمة المعرفية، والتخيل يمنحها الجمال والحيوية ، ولهذا فإن نصّ المقرئ لا يمكن النظر إليه على أنه وثيقة تاريخية فقط، ولا على أنه نص أدبي فقط، بل هو نص يجمع بين الاثنين، وهذا ما جعله مهما في أدب الرحلة الجزائري والعربي.

- المقرئ التلمساني يمثل شخصية علمية جزائرية بارزة، استطاعت أن تربط بين المغرب والمشرق، وأن تجعل من الرحلة وسيلة للعلم والتأليف والتواصل مع العلماء. فرحلته تكشف عن ثقافة واسعة، وعن قدرة كبيرة على الوصف، وعن إحساس عميق بالمكان والزمان، وهذا ما جعل كتاباته ذات قيمة كبيرة في الأدب والتاريخ معا.

- أن أدب الرحلة يعد من أكثر الأجناس الأدبية ثراء لأنه يجمع بين الأدب و التاريخ والجغرافيا والاجتماع.

- الرحلة ليست مجرد تسجيل للتنقل بين الأماكن بل هي وسيلة لنقل المعرفة وتوثيق التجارب الإنسانية.

- تعد رحلة المقرري وثيقة تاريخية مهمة سجلت أخبار المدن والعلماء و المجالس العلمية في المغرب والمشرق، كما أن النص الرحلي عنده يكشف عن جوانب مهمة من الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية في عصره.
- تميز المقرري وتمتعه بقدرة كبيرة على الملاحظة والوصف وتسجيل التفاصيل الدقيقة، وبذلك يعد التلمساني من أبرز أعلام أدب الرحلة في الجزائر لما تركه من مادة علمية وأدبية ذات قيمة كبيرة.
- إن التخيل كان حاضرا بقوة في الرحلة من خلال التشبيهات والاستعارات و الصور الأدبية المختلفة، ولم يكن وسيلة للابتعاد عن الحقيقة، بل أداة فنية لتوضيحها وتقريبها إلى القارئ.
- يجمع الجانب التاريخي في النص الرحلي المصدقية والواقعية، بينما يمنحه الجانب التخيلي جماله الأدبي وتأثيره الفني.
- نجح المقرري في الجمع بين شخصية المؤرخ الذي يوثق الأحداث وشخصية الأديب الذي يعبر عن مشاعره وأحاسيسه، مما جعل الرحلة تعكس المستوى العلمي والثقافي الذي بلغه.
- وفي الأخير يمكن القول إن هذه الدراسة لا تدعي أنها أحاطت بكل جوانب رحلة المقرري، لأن النص الرحلي واسع ومتشعب، ويمكن دراسته من زوايا أخرى، مثل الجانب الصوفي، أو الجانب اللغوي، أو الجانب التاريخي، أو مقارنة رحلته برحلات جزائرية أخرى ، ولكننا حاولنا أن نسلط الضوء على جانب مهم، وهو تداخل التأريخ والتخيل في بناء الرحلة.
- ونسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا في إنجاز هذا البحث، فإن أصبنا فمن الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا، والكمال لله وحده، والحمد لله رب العالمين.

ملحق

• التعريف بالمقري التلمساني ومنجزه الرحلي:

➤ نبذة عن حياة أحمد المقري التلمساني ومؤلفاته :

• مولده: (986هـ/1578م)

يعد شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري التلمساني، أديب وفقه ومؤرخ جزائري الأصل أحد أبرز القامات العلمية التي أنجبها المغرب الأوسط في القرن الحادي عشر الهجري، هو العالم الموسوعي الذي جمع بين التاريخ والأدب والفقه والحديث، واشتهر بلقب المقري نسبة إلى قرية مقرة الواقعة في بلاد الزاب بالجزائر، كما لقب بـ شهاب الدين لذكائه المفرط، وسعة اطلاعه التي جعلته شعلة علمية أضاءت حواضر المغرب والمشرق، تنتمي أسرته إلى أعرق البيوتات العلمية العربية التي تعود أصولها إلى قبيلة قريش كما أثبتته المقري وأيده ابن خلدون وابن الخطيب، وقد هاجرت أسرته من موطنها الأصلي لتستقر في تلمسان، عاصمة الزيانيين، منذ القرن السادس الهجري، حين نزل بها جده الخامس عبد الرحمن المقري صحبة شيخه أبي مدين الغوث، فنشأ في بيئة تمور بالعلماء والمكتبات، قد حظيت عائلته بمكانه اجتماعية مرموقة وسعة في الرزق بفضل اشتغالهم بالتجارة وإشرافهم عليها .

ولد المقري في تلمسان سنة (986هـ) (1578م)، في حقبة ظلت فيها المدينة محافظة على رصيدها الثقافي رغم تغير أحوالها السياسية، وقد اتسم تاريخ مولده بنوع من الغموض المقصود منه؛ إذ لم يشر إليه في مؤلفاته اقتداءً بالسلف الذين كانوا يخفون أعمارهم قائلين: «ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه»، ومستشهداً بقوله: «احفظ لسانك ولا تبخ بثلاثة.. سن ومال ما استطعت ومذهبا»،

إلا أن الباحثين استدلوا على التاريخ من كناشة رفيقه أبي حامد الفارسي، وهكذا نشأ المقرئ بين أحضان أسرة عريقة برز منها جده قاضي الجماعة بفاس، وفي مدينته التي وصفها بحنينه قائلاً: «وتلمسان هذه هي مدينتنا التي علقت بها التمائم... وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي وقرأت بها ونشأت». وهو بذلك ليس مجرد رحالة، بل هو عالم ومؤرخ كبير، كتب عن تاريخ الأندلس والمغرب كتباً أصبحت مراجع أساسية لكل من يدرس هذا التاريخ

• نشأته التعليمية وتعليمه كاملاً في الحجاز:

نشأ المقرئ في مدينة تلمسان، تلك «المدينة التي علقت بها التمائم»، وتربى في كنف أسرة علمية عريقة وفرت له مناخاً معرفياً مثالياً؛ فبدأ بحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم انكب على دراسة علوم اللغة العربية والحديث والفقه المالكي، وكان أول معلم وموجه له هو عمه الشيخ أبو عثمان سعيد المقرئ (ت 1025هـ)، الذي كان أشهر علماء تلمسان وفقهائها ومفتيها وخطيب مسجدها الأعظم لـ 45 عاماً؛ فمنه اغترف العلوم الشرعية واللغوية، وقرأ عليه صحيح البخاري سبع مرات والقراءات الست، وهو الذي حُبب إليه الرحلة وزين له طريق التحصيل في فاس

لم يكتفِ المقرئ بعلوم بلده، بل شد الرحال إلى المغرب الأقصى في الثالثة والعشرين من عمره، فحل بفاس سنة (1009هـ)، ثم مراکش، واتصل بكبار العلماء والجهابذة كإبراهيم بن محمد الآيسي الذي أعجب بشخصيته واصطحبه لمراكش، والفقيه عبد الغني حسن، والشيخ أحمد بابا التنبكتي

صاحب "نيل الابتهاج"، إضافة إلى ابن القاضي؛ مما أسهم في نماء بصيرته العلمية وجعل منه باحثاً مُتَفَنِّناً يشار إليه بالبنان في الفقه والتفسير وعلم الكلام والأدب.

تحول المقرئ في الحجاز من طالب للعلم إلى شيخ الشيوخ، ومعلم ينشر المعارف في أطهر البقاع؛ فخلال زيارته المتكررة لمكة والمدينة، تجمع حوله طلاب العلم وعلماء الحرمين، ودرّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي دروساً في الفقه والعقيدة والشمائل المحمدية، وقد نال هناك حظوة ومكانة سامية، وصفه فيها الشيخ سيدي محمد بن سعد الكلشني بقوله: «كبير زمانه دون منازع، وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع، شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ»، ولم يقتصر نشاطه على التدريس، بل كان له مراسلات مع العلماء والحكام، وألف هناك أراجيز صارت كتباً مرجعية مثل "فتح المتعال" و"أزهار الكمامة"، واستطاع ببراعة أن يربط بين الفكر المغربي والمشرقي، مما جعل رحلته الحجازية ركناً أساسياً في بناء صيته العالمي.

تنوعت العلوم التي تحصل عليها المقرئ لتشمل المعقول والمنقول؛ فقد كان آية باهرة في علم الكلام والتفسير، ورواية الحديث، والسيرة، وعلوم اللغة، والتاريخ والجغرافيا، وصفه الحفناوي في "تعريف الخلف" بأنه كان معجزاً باهراً في الأدب والمحاضر؛ نظراً لما امتلكه من رصيد معرفي وأسلوب في تحليل المتون وشرح الإشكالات، وقد أثمرت هذه الموسوعية مؤلفات في مختلف الفنون، فكتب في العقيدة "إضاءة الدجنة"، وفي اللغة "إتحاف أهل السيادة"، وفي السيرة "فتح المتعال"، إن هذا النبوغ كان ثمرة ملازمته الطويلة للأشياخ في تلمسان وفاس ومراكش ثم الحجاز والشام، مما جعل منه عالماً جامعاً لأشتات العلوم بأسرها وشخصية فذة شهد لها الجميع بالإمامة والتحقيق.

• مؤلفاته :

يعتبر المقرئ من أكثر علماء عصره إنتاجاً وتأليفاً، فقد ترك وراءه ثروة هائلة من المصنفات التي دلت على سعة ثقافته وتبحره في العلوم؛ فمنها ما ألفه بتلمسان والمغرب قبل رحلته، وأخرى أنجزها في الحجاز والشام والقاهرة، تأتي في مقدمة مؤلفاته التاريخية والأدبية المطبوعة كتابه الشهير "نفح الطيب" من غصن الأندلس الرطيب وهو موسوعة تاريخية وأدبية شاملة، وكتاب "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" الذي جاء في خمسة أجزاء، كما برع في التصنيف الديني والعقدي فألف "إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة"، و"فتح المتعال في مدح النعال"، وبالإضافة إلى هذه الدرر، للمقرئ قائمة طويلة من الكتب المفقودة أو المخطوطة مثل "الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين"، و"الجنابذ فيمن لقينته من الجهابذ"، وشرح لـ "مختصر خليل" بعنوان "قصص المهتصر"، مما يثبت أنه كان قطباً في سماء التأليف لا يجارى ولا يبارى، وقد أثرت هذه المؤلفات المكتبة العربية والإسلامية أيما إثراء.

كان صيت المقرئ في المدن التي نزل بها كفيلاً يجعله مهوى أفئدة أهل العلم وطلابه؛ حيث استجازه كبار علماء الحجاز والشام ومصر، وقد نظم المقرئ إجازة بليغة بمروياته سنة 1030هـ تقع في 41 بيتاً، ذكر فيها أنه يروي موطأ الإمام مالك مع الصحيحين وسائر الكتب الستة، ومن قوله فيها: «وقد روى عني موطأ مالك.. إمامنا منير كل حال.. مع الصحيحين اللذين جازا.. سبق العلى راويهما وفازا» ومن أبرز من أجازهم المقرئ في الحجاز الشيخ حنيف الدين بن عبد الرحمن بن عيسى المرشدي مفتي الحنفية بمكة، والشيخ تاج الدين بن أحمد المكي خطيب المسجد الحرام، قائلاً له: «وها أنا أجزته بكل ما رويته وبالقصور معلماً على شروطه» لم تكن هذه الإجازات مجرد

تشریف، بل كانت توثيقاً لسلسلة السند المتصلة بين مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، مما بوأ المقري مكانة شيخ المحدثين في وقته، وجعل من رحلته العلمية جسراً ثقافياً متيناً انتقلت عبره العلوم والمعارف، ليكون بذلك أحد أهم دعائم النهضة العلمية في القرن الحادي عشر الهجري

وفاته :

شهدت السنوات الأخيرة من عمر المقري تدهوراً ملحوظاً في حالته الصحية، تزامناً مع ظروف اجتماعية ونفسية قاسية إثر طلاقه لزوجته المصرية وفقدانه لابنته، مما أدخله في فترة من العزلة بالقاهرة، وبالرغم من تعلقه بمدينة دمشق ورغبته في الاستقرار بها، لما وجدته في أهلها من تقدير، إلا أن القدر لم يمهله؛ فبعد عودته منها في محرم 1041هـ، وافاه الأجل بالقاهرة في شهر جمادى الآخرة من العام نفسه (1632م). ويقول المؤرخ عبد الباقي الحنبلي واصفاً هذا الرحيل «:فاحترمته المنية بمصر، ودفن بتربة المجاورين سنة إحدى وأربعين»

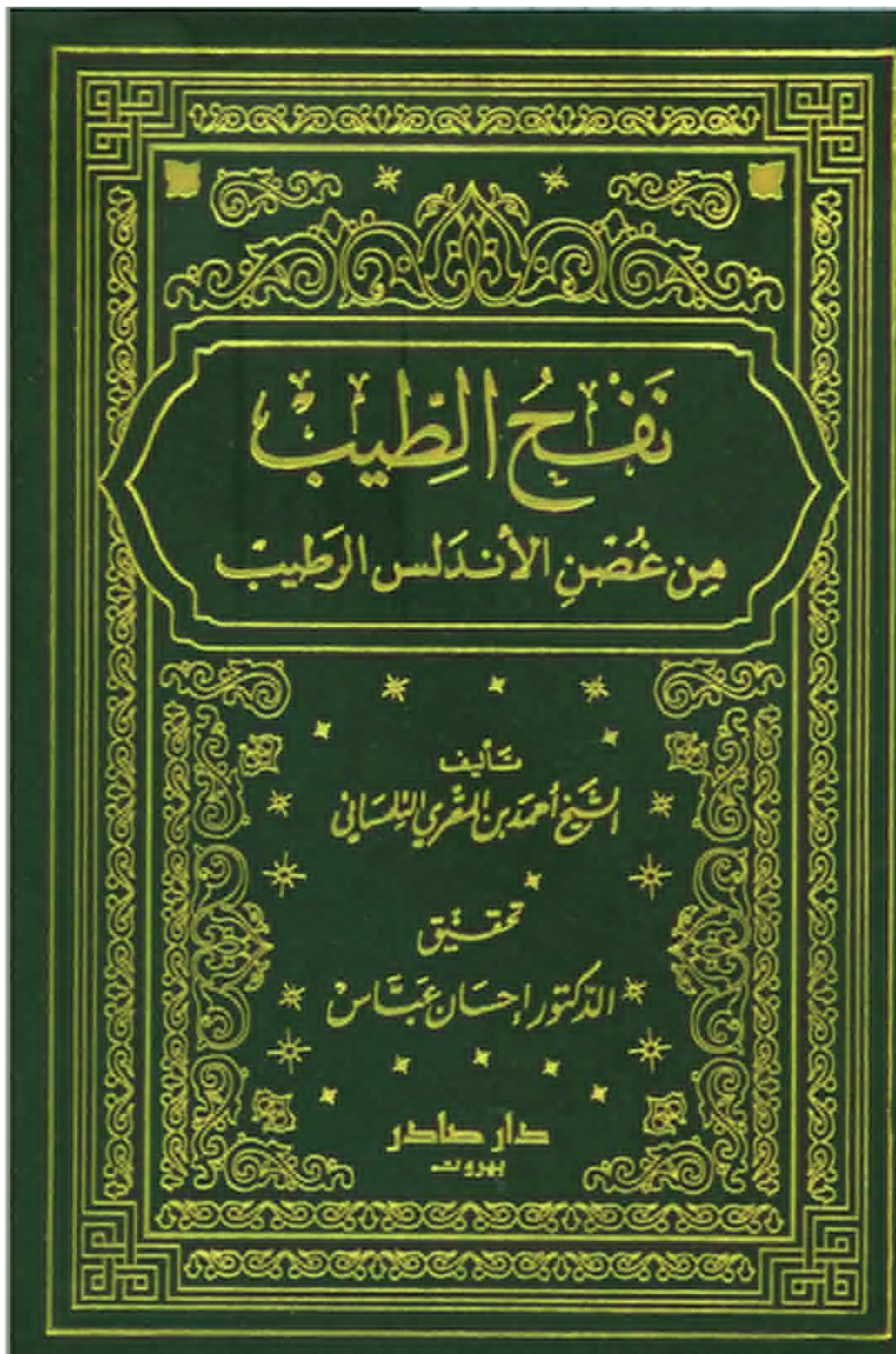
وبمواراته الثرى في مقبرة المجاورين بالقرب من الجامع الأزهر، اختتم المقري رحلة علمية شاقة ربطت بين تلمسان ودمشق ومكة، ولم يكن رحيله غياباً لذكره، بل ظلت مؤلفاته شواهد حية على نبوغه، ليبقى حياً بعلمه كواحد من أعظم الشخصيات التي أنجبها الجزائر، وأكثرها تأثيراً في الثقافة الإسلامية بفضل علمه الواسع ومكانته المرموقة بين العلماء.

➤ نفح الطيب من قضن الأندلس الرطيب:

أشهر مؤلفات المقرئ كما يعد أحد أبرز المراجع العربية المعتمدة حول تاريخ الأندلس، وتجدد الإشارة أن (المقرئ) ألف كتابه "نفح الطيب بطلب من أحمد بن شاهين الصقلي الدمشقي، الذي أعجبه الحديث، الذي كان يدور بين (المقرئ) وعلماء دمشق حول عالم الأندلس (لسان الدين ابن الخطيب ، ارخ لنا المقرئ من خلال ما تكشفه لنا مقدمة نفح الطيب الذي يعد موسوعة أدبية وتاريخية لبلاد الأندلس وحضارته في مختلف جوانبها السياسية الاجتماعية الاقتصادية والعمرانية من الفتح حتى السقوط وقد أضافت هذه الموسوعة للدراسة معلومات ثمينة حول صناعة التعليم في المغرب الإسلامي، ومقارنتها بنظيرتها في المشرق الإسلامي، وقدم وصفا لبعض المنشآت الدينية والعلمية بأهم حواضر المغرب كتلمسان، وفاس، ومراكش وذكر أسماء الفقهاء والعلماء والأدباء الذين درسوا بها، وعقد مجالس العلم وما دار بها من مناظرات ومناقشات و جدل .

➤ كتاب رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق :

يعتبر هذا الكتاب من الآثار المفقودة ل أبي العباس المقرئ، ويحتوي على معلومات هامة تتعلق بحياة (المقرئ) الشخصية في تلمسان، كما يحتوي على مخاطبات ومكاتبات ومساجلات ومراسلات المؤلف مع أعيان عمره كما يتضمن كذلك مجموعة من القصائد والمقطوعات من نظم (المقرئ) وبعض أدباء عصره .





قائمة
المصادر
والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

1. القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم .

ثانياً: المصادر الأساسية

1. المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ / 1988م .
2. المقري التلمساني، أبو العباس أحمد، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004 .
3. ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، لبنان، ط1، 2000م .
4. الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1426هـ / 2005م .

ثالثاً: المعاجم والقواميس

1. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة .

قائمة المصادر والمراجع

2. البستاني، بطرس، محيط المحيط: قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1987 .

3. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1989 .

4. وهبة، مجدي، والمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط2 .

5. عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984 .

رابعاً: الكتب والمراجع العربية

1. قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002 .

2. الصعيدي، عبد الحكيم عبد اللطيف، الرحلة في الإسلام: أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2008 .

3. الشامي، صلاح الدين علي، الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999 .

4. المواي، ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، مصر، ط1، 1415هـ / 1995م .

5. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي: الفن القصصي، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4 .

6. الإدريسي، يوسف، مفهوم التخيل في النقد والبلاغة العربيين: الأصول والامتدادات، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض، ط1، 2015 .

7. بادحدح، علي بن عمر، دروس للشيخ علي بن عمر بادحدح، المكتبة الشاملة، الجزائر، 2023 .

8. عبد الرحمن، سعد بن محمد عمر، مفهوم التاريخ ومكانة التاريخ في الثقافة الإسلامية، شبكة الألوكة، 2017 .

خامسا: الرسائل والأطروحات الجامعية

1. أنساعد، سميرة، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري: دراسة في النشأة والتطور والبنية، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والآداب، جامعة الجزائر، 2006-2007 .

2. روباش، جميلة، أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2014-2015 .

3. عثمانية، أحلام، محاضرات في أدب الرحلة الجزائري، مطبوعة بيداغوجية، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة 8 ماي 1945، قالمة، الجزائر، 2019-2020 .

سادسا: المقالات والمجلات العلمية

1. خطوي، العيفة، أدب الرحلة في التراث الجزائري، مجلة بدايات، جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر، المجلد 05، العدد 01، جانفي 2023 .
2. بحري، نصيرة، أدب الرحلة: إشكالية المصطلح ووثوقية المفهوم، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر .
3. عبود، أوريدة، التخيل الذاتي في العملية السردية بين المفهوم والتأسيس، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، المجلد 17، العدد 02، 2020 .
4. بن يطو، حورية، مصطلح التخيل وإشكال الاشتقاق فيه في الفلسفة العربية الأولى: من الكندي إلى الفارابي، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات، جامعة أدرار، المجلد 13، العدد 01، ماي 2025 .
5. ولدكرادة، حكيمة، التخيل في الموروث النقدي العربي، مجلة اللغة العربية، جامعة مستغانم، المجلد 23، العدد 01، الثلاثي الأول، 2021 .

6. مرزوق، فتيحة، الوضع الثقافي بمدينة الجزائر خلال القرن 17م من خلال الرحلات

الحجازية: رحلة المقرئ نموذجًا، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 02،

العدد 01، جوان 2018 .

7. رحومني، نورة، وشابي، سعاد، الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري، مجلة رفوف، جامعة أحمد

دراية، أدرار، المجلد 07، العدد 01، جوان 2019.

ملخص

تتناول هذه المذكرة دراسة مظاهر التخيل والتأريخ في رحلة أحمد المقري التلمساني، باعتبارها نموذجاً من نماذج أدب الرحلة العربي، وقد بينت الدراسة أن الرحلة لم تكن مجرد وصف للأسفار والتنقلات، بل تضمنت أبعاداً تاريخية وأدبية متنوعة، فقد حرص المقري على تسجيل الأحداث، ووصف المدن، والتعريف بالشخصيات العلمية التي التقاها، مما منح الرحلة قيمة توثيقية واضحة، وفي المقابل، وظّف أساليب أدبية وصوراً بلاغية أضفت على النص طابعاً جمالياً وتخييلياً، كما أظهرت الدراسة تداخل الجانب الواقعي مع الجانب الفني داخل النص الرحلي ومن خلال ذلك تتأكد أهمية أدب الرحلة بوصفه مصدراً تاريخياً وأدبياً في الوقت نفسه.

Abstract

This dissertation studies the aspects of imagination and historiography in the travel narrative of as a model of Arabic travel literature. The study shows that the journey was not limited to describing travels and movements, but also included historical and literary dimensions. Al-Maqqari carefully documented events, described cities, and introduced the scholars and personalities he met, which gave the text an important historical value. At the same time, he used literary styles and figurative expressions that added artistic and imaginative qualities to the narrative. The study also highlights the overlap between reality and artistic expression in the travel text. Therefore, travel literature appears as both a historical source and a literary work.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	أ
مدخل: مفاهيم ومصطلحات	7
مفهوم الرحلة لغة واصطلاحا	7
الرحلة لغة	7
الرحلة اصطلاحا	9
مفهوم التخييل لغة واصطلاحا	11
التخييل لغة	11
التخييل اصطلاحا	12
مفهوم التأريخ لغة واصطلاحا	19
التأريخ لغة	19
التأريخ اصطلاحا	21
الفصل الأول: أدب الرحلة في الجزائر	23
ماهية أدب الرحلة وخصائصه	24
ماهية أدب الرحلة	24
خصائص أدب الرحلة	27

30	نشأة وتطور أدب الرحلة في الجزائر
34	نشأة أدب الرحلة في الجزائر
36	تطور الرحلة في الأدب الجزائري
38	أشهر الرحالة الجزائريين ورحلاتهم
41	الفصل الثاني: رحلة المقرئ التلمساني أنموذجا
42	عرض موجز لرحلة المقرئ التلمساني إلى المغرب والمشرق
45	تجليات التأريخ والتخييل في رحلة المقرئ التلمساني
45	مغادرة تلمسان إلى المشرق
51	ركوب البحر وبلوغ مصر
55	زيارة مكة المكرمة
60	زيارة المدينة المنورة
62	زيارة بيت المقدس
64	من الرحلات التي وثقها وأرخها الرحالة
64	زيارة المقرئ لمدرسة إمام أولاد تلمسان
64	زيارة مدينة الجزائر المحروسة
65	لحظة وداع المقرئ لمجالس العلم في مصر
67	خاتمة

71	ملحق
72	التعريف بالمقري التلمساني ومنجزه الرحلي
72	نبذة عن حياة أحمد المقري التلمساني ومؤلفاته
73	مؤلفاته
75	وفاته
77	كتبه
79	قائمة المصادر والمراجع
85	ملخص
86	فهرس المحتويات